سعاد بلوني
كفر العتايدة
رواية

كفر العتايده

سعاد بلوني

الطّبعة الأولى
السداسي الأول 2023
كل الحقوق محفوظة لصالح دار الكلمات للنشر والتوزيع
ردمك:ISBN:978-9931-793-06-9

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من النّاشر

دار الكلمات للنشر والتوزيع
العنوان: لانطندا مقابل الطريق الوطني تازولت. باتنة
email: dar.elkalimat2018@gmail

الهاتف:00.213.791.681.304
00.213.542.104.287

اهداء

إلى كل مثابر يسعى إلى التّغيير في حياته

إلى كل صبور لم يستسلم ويأمل دوما في التغيير

إلى كل متعسر يرجو دوما اليسر

لن يتغير في الحياة شيء إن قررنا الثبات في أماكننا دون حراك.

إن الأشـياء من حولنا تتحرك لتغير من أوضـاعها فالأرض على الدوام تدور ليكون فيها ليل ونهار والشـمس والقمر كل في الكون يسـبح فكيف للمرء الثبات في أمر وعلى أمر وتمني التحول والتغير في حياته.

إن للقمر دورة عمرها تقريبا ثلاثين يوما وهو في كل يوم في شـأن فلا يطلبن الانسـان المسـتحيل وهو لم يمدد له بالأسـباب أحيانا لابد من التضحية من أجل الحصول على السعادة المنشودة.

غالبا التضـــحية لا تكفي فلا بد من قطع القيود المكبلة للفكر والموضـوعة من العادات والمجتمعات على الاعناق...قطع الأغلال هي أول خطوة لتحليق بعيدا والبحث عن السعادة في كل مكان.

أعرف أن الامر غريب؛ ولكن موتك هدى من جعل الكون من حولي ومن خلفي يتغيّر وجعلني أنا أيضا أتحول من حال إلى حال.

هدى ســـامحيني لأن تغيري لم يأتي إلى على أنقاض رفاتك أو بالأحرى من بعد فوات الأوان ولكنه أتى على الأقل ولم أخيب فيه كما خيبت في كل شـيء وخاب ضـني في كل شـيء وخيبت ضـنك في كل شيء.

هدى الحياة من بعدك أحب أن أشـبهها بزهرة دون رائحة وبملمس شـائك أو ربما بالزهرة التي تســـاقطت أوراقها فباتت مشـــوهة دون هوية دون هويتها.

أحبك هدى لن يتغير الكون من حولنا إلا بقرارنا أو من قرارنا،

ابنتي هذه أول كلمات أكتبها من بعد تعلمي للقراءة والكتابة،

أحبك ابنتي ولي لك في كل يوم صلاة ودعاء بالرحمة،

قدرنا واحد وإن تفرقت بنا الطرق وحالت بيننا أيام وأعوام،
كذبة تفوهت بها وصارحتني بها ولغبائي صدقها فؤادي،
قلت لي إن الحب موجود وأن وجوده مرتبط بوجودك ووجودي،
ذلك الوهم الذي خلقته من العدم؛ خلق أحزاني وانذراف دموعي،
تلك الكلمات التي تفوهت بها ربما دون وعي منك خدعتني،
تلك الكلمات التي سردتها علي رمت بي إلى بقاع الأحزان،
تلك الكلمات راودتني عن نفسي حتى ظلمت نفسي،
ذلك الكلام الذي قلته لي يومها لم يكن سوى من وحي خداعك،
لن أسامحك ولن أنسى مرارة الألم الذي خلفته في نفسي،
ذلك الألم دام وسيدوم لأنّه كبير كبر البحار،
ذلك الألم بلغ بنفسي مبلغ الهلاك والضياع،
أعرف أن الكون فيه الجميل والدنيء،
ولكن كم الدنيء الذي بلغني كان أكبر من الجميل والفضل يعود لك،
أعرف أن الزمان صعب على الكثير من الخلق الذين ضاعت حقوقهم في الكون بسبب خضوعهم وجشع مخلوقات مثلهم، ولكنّه علي مرير وكأنه ينتقم مني دون الناس كلهم وكأنه يخوض معي حربا لا بداية لها ولا نهاية لها، أعلم أن لي يد في الأمر ولكني اليوم مجرد امرأة مستضعفة كما كنت دوما مجرد امرأة أهانها رجل وأقعدها على مقاعد الاحتياط ولتعبها من الأحزان لا بد لها من الوقوف مرة أخرى من أجل حياة أخرى دون الاستناد على أي رجل آخر.
لا وجود لحب حين تضيع حقوقي كامرأة وقد ضيعت كل حقوقي حتى البسيطة منها.

الفصل الأول:

إحساس القلب بالبرد أقسى من إحساس الجسد به

إحساس القلب بالبرد أقسى من إحساس الجسد به

تتقلب في مخدعها الضيق الذي ما هو إلا مجرد بطانية مفروشة على حصير قش قديم مهتر بفعل الاعوام والأهوال.

وفي كل تقلب لها تسمع طقطقة تصدر من الحصير فتنزعج لها ومنها.

هي معتادة على سماع هذه الطقطقة ولم يسبق لها أن أولت الأمر أهمية، ولكنها اليوم على أعصابها ولن تستطيع تحمل أي شيء من غير حديث نفسها المشوه بسبب الكدر والهم الذي أصابها ولحق بها منذ تواجدها في هذا الكون الذي خيب ظنها مع أنها لا تملك أي ظن حسن به ولم تعلق به أو تنتظر منه أي أمر حسن.

منذ ولادتها وهي في دور الكائن الوجودي الصامت الكتوم الذي يتحمل كل شيء وعليه تحمل كل شيء والرضوخ لكل مستجد دون البحث في الأسباب والنتائج ودون محاولة فهم الأمر.

وأي دور غير هذا يمكنها أن تلعبه في كفر العتايده الذي ينضر إلى المرأة فيه نضرة احتقار وازدراء وخاصة إن كانت امرأة مثلها لم تمنح الحياة إلا لإناث مثلها.

لقد وجدت نفسها في هذا الدور الذي فرض عليها من غير رضائها، فرضيت به وعاشت فيه ومعه ولم تشتكي من الأمر يوما ولم

تهتم بالأمر يوما، وحتى أنها لم تستعمل يوما الدماغ الذي منحها لها رب الكون لتجد حلا للأمر أو لتفهمه على الأقل كما ينبغ.

تســـمع ابنتها النائمة قربها تدمدم بكلام غير مفهوم فتقترب منها وتحاول تأملها على ضـــوء الشـــمعة اليتيمة التي لم يتبقى من عمرها الكثير.

لم يسـبق لها وأن تأملت ابنتيها ولم يسـبق لها أن اشـتهت الأمر، حتى أنها لم تحاول يوما التحديق جيدا فيهما؛ لأنهما انثيين ولابد من احتقار الانثى ولأنه قدر الأنثى أن تحتقر مهما كان القدر الذي تملكه من الحكمة أو الجمال فهذا هو نصـيب الأنثى في كفر العتايده ... ليس من حق الأنثى هنا أن تحب أو تحب ليس من حقها حتى الحصول على الحب الأول الذي يحصـل عليه أي إنسـان في بداية حياته والذي هو من أحق الحقوق البشرية حب أمها التي هي أنثى مثلها.

في كفر العتايده ليس من حق الأنثى الحصـول على شـيء بما في ذلك حب أمها، لأن ولادتها في حد ذاته ذنب لابد أن تعاقب عليه بعدم حصـــولها على أي شـــيء، ولهذا عاقبت ابنتيها ولم تولهما يوما اهتماما كافيا كما يسـتحقان لا تعرف لماذا أو ربما لأنه منطق الإنسـان أن يدين بما يدين به من حوله دون تفكير.

حين يجد المرء بيئته على أمر معين يعتاد عليه ويعيش فيه دون الاهتمام أو التفكير إن كان الأمر هو الأصلح له ولمن حوله أو لا وهكذا هي.

تتنهد وتضع يدها على قلبها وتحس بدموعها شلال يذرف.

إنها دموع الفؤاد المكســـور من الحياة، ومما فيها من الشـــر ومن المكر.

الحياة صـــعبة حين لا نفهم منها ســـوى القليل وأصـــعب ما تكون على المرء حين يعتقد أنه فهم منها الكثير وهو لم يفهم منها شيئا.

فقه الحياة صـــعب لا يدرك بالعقول بقدر ما يدرك بالقلوب، وقلبها مكسور من الحياة وهذا ما جعله أعمى لا يرى فيها شيئا.

تقف وتحدق في أرجاء الغرفة وفي كل شـــبر منها؛ أهذا نصـــيبها من هذه الدنيا؟ لماذا الحياة عنيدة هكذا معها؟ لم يسبق لها أن فكرت في أمر كي لا تتألم من أمر... وضعها اليوم يتطلب التفكير وإعادة الحساب في كل شيء ولكل شيء.

تظل واقفة على حالها، وبعد مدة طويلة من التفكير دون الوصـــول إلى شـــيء مفيد أو إلى حل كافي ووافي؛ تبكي بشـدة وهي واضـعة يدها على فمها كي لا يخرج صـــوت الألم منها. ففي كفر العتايده على المرأة ألّا تفصح على ألمها وأن تكتمه وإن كان هذا سيكون سببا في موتها...لا يحق للمرأة أن تتألم علنا حتى حين تتمزق أحشاؤها من الحزن.

هنا لا يحق للمرأة أن تصـــرخ حين يكون الفؤاد ممزقا من الحزن والحرمان وما أصـــعب الفؤاد المتمزق من قهر لا يمكن تجاوزه والتخلص منه.

على المرأة أن تكتم أحزانها عن البشـر كلهم وعلى رأسـهم زوجها، فلا بد على المرأة أن تبتســـم دوما في وجه زوجها كي يحبها ولا يهجرها ويتركها معلقة، خاصـــة حين يكون له زوجة أخرى يلوذ بالفرار إليها كلما عكرت صفوه وكأنّه ولد ليتمتع وولدت لتشقى.

وكأنه ولد لكيلا يحزن وولدت لتحمل الحزن كله.

حتى في هذا الوقت هو ليس معها، وكيف يكون معها وهو الآن في أحضـــان زوجته الأخرى، في غرفة فوق غرفتها تقريبا كيف يكون معها في حزنها، هو لا يمكن أن يكون معها إلا في الأفراح أما الحزن فهو ممنوع عنه بمقتضى العادات والتقاليد الجائرة.

على المرأة أن تتألم لوحدها دونه لأنه لم يولد لهذا.

المرأة لابد أن تكتم وتتكتم على كل شـيء عن حبها عن ألمها عن أوجاعها وكأنها كائن دون روح، أما الزوج فله الحق في كل شيء إلا في الحزن أو في مشـاركة الزوجة فيه وتقاسـمه معها حتى لا ينكسـر ظهرها منه...أجل إنها العادات وما أدرك ما عادات كفر العتايده..

اليوم تفهم أن الزواج في كفر العتايده خدعة اقتنعت بها المرأة؛ فالزواج في كفر العتايده ليس في صالح المرأة، بل في صالح الزوج فقط.

في كفر العتايده الرجل يتخذ زوجة ليجعل منها خادمة؛ فتلبي كل حاجاته لا ليتقاسما الأحزان والصعاب، فيخف العبء على الاثنين إنه منطق صعب، ولكنها الحقيقة حقيقة نوع الحياة في هذه المنطقة المعزولة النائية الفقيرة من الخصوبة والخير كحال ساكنيها.

تعطس ابنتها النائمة فتقول لها: "**يرحمك الله**".

تحدق اليها نور بعينين نصف مغلقتين وتقول لها قبل أن تعاود النوم: "**أمي...**"

لم تهتم يوما بهذه الكلمة الجميلة التي سمعتها لتو من طفلتها، إلا اليوم فحروبها مع ضرتها من أجل الزوج الغائب عنها دوما، إلا في أفراحها أنساها الأهم في الحياة ابنتيها.

ماذا لو حرمت من هذه الكلمة **أمي** ماذا ستفعل؟

لم تفكر يوما في احتمالية وقوع الأمر إلا الآن.

هل كانت غبية إلى هذا الحد؟ أم أن الجهل أقوى من الغريزة الأمومية؟

ماذا عليها فعله هل عليها الذهاب لرؤيتها أم تكون مطيعة كالمعتاد وتبقى في غرفتها هذه دون فعل أي شيء؟

لم تكن تعرف أن غريزتها كأم قوية.

تقف بعد أن غطت جيدا نور وتأخذ شـمعة من الخزانة وتشـعلها وتخرج من المنزل من بعد أن تأكدت أن الكل نيام.

تغلق الباب الخشبي وتتوجه بخطى مثقلة نحو الزريبة الواقعة على بعد مترين من المنزل، تفتح الباب وتدخل فترى ابنتها ذات السادسة عشر عاما مربوطة إلى عمود خشبي بين الدواب جالسة ورأسها يتدلى.

والدواب من حولها تبكي أو تشمها لا تدري؟

تجلس قربها وتقول بصوت خافت مبحوح: "**هدى**"

لا تجيبها فترفع شـعرها البني الحريري المتدلي على الأرض، ثم عن وجهها لترى وجهها الجميل وتستبين أنها نائمة.

تتأمل وجهها فترى أن الدمع حفر اخدودين على خديها، وتعتصـر من الألم مع هذا، تصـمت وتتكتم على المها الذي ما هو إلا وليد بركان ولد داخلها لتوه.

تبقى قربها دون قول كلمة.

ترى البهائم تحدق فيها وترى بقرة نائمة قرب صـغيرها فتقول بصـوت خافت مبحوح:" **هل أنت أرحم مني؟ تنامين قربه متجاهلة كل شيء ؟**"

تسـعل هدى لعدة مرات ومن ثم تفتح عينيها تتفاجأ برؤية أمها وتقول بحزن وهي تبتسم: "**ماذا تفعلين هنا أمي؟**"

بعد صمت مليء بالألم والقهر تكمل هدى: "**هو سيغضب أن علم أنك هنا...فغضبه أهم من ألمي وألمك أليس كذاك؟ ... غضبه أهم من حياتنا كلها.**"

الأم: "**لم يعد يهمني...**"

هدى وهي تبلل بلسانها شفتيها الممتلئتين الصغيرتين اللتين جفتا من البكاء أو الحزن أو القهر... لا يهم فهما جفتا وانتهى الأمر: "**لم يعد يهمك غضبه مع هذا فات الأوان وانتهى كل شيء بالنسبة لي... انتهى كل شيء.**"

الأم: "**أنت وأختك الأهم...**"

تبتسم وهي تسند رأسها على العمود الخشبي الذي ربطت إليه وتقول: "**متعبة أمي...متعبة من كفر المعتدين وما لحق بي من أهلها تعبت أمي وأريد أن أرتاح حقا.**"

الأم: "**سامحيني... لكني أضعف من أن أحمل عنك القليل من الهم.**"

هدى: "**لا عليك أمي...**"

الأم: "**أحبك ابنتي**"

تبتسم وهي حزينة وتقول: **"لم أسمعك يوما تقولين لي أحبك ... قد تكون آخر كلمة أسمعها منك أمي أنا سعيدة لأني سمعتها منك أخيرا."**

الأم: **" آخر كلمة؟"**

وهي حزينة تقول: **"زارتني اليوم مريم البتول في المنام."**

الام: **"تقصدين مريم العذراء ؟"**

هدى: **"أجل وقد رحبت بي كثيرا من بعدها طلبت مني اللحاق بها إلى مكان جميل جدا وفعلت... لم أتصور يوما أنها بهذا القدر من الحسن."**

تحس الأم بدموعها ساخنة على خديها وتقول: **"لماذا لم ترفض اللحاق بها حتى في الأحلام؟ لا غاية لك سوى الرحيل والهروب... هل ستتركين أمك أصلا أنا ليس لي أحد في هذه الدنيا من غيرك وأختك..."**

هدى: **"أجل هي غايتي وكيف لا أرحل مع شخص أحسن الترحيب بي وأنا التي لم أعتد الأمر من أحد حتى من أهلي... لم يرحب بي يوما من أهلي لأني ولدت أنثى، حتى يوم ولادتي لم يرحب بي، بل قوبلت بالدمع والنواح وكأني جثة لا كائن حي يحمل روحا ووجدانا..."**

الأم: **"لماذا هذا الكلام كله...؟"**

هدى: **"لأنه آخر يوم لي في هذا الكون أمي أنا سأموت، سأقتل غدا ومن حقي أن أعبر عن أوجاعي التي تسكنني وسكنتني دوما..."**

الأم: **"لن يقبل والدك أن تقتل أي صحيح هو لا يحبنا ولكنه لن يقبل بالأمر."**

هدى: **"أمي أنت لا تعرفين من حولك؟ إن فهمت الأمر على هذا النحو فأنت على جهل تام بمن حولك في كفر المعتدين، لا قدر للمرأة... ليس معترف بالأنثى في وضع الابنة أو الأخت أو الزوجة أو..."**

الأم: **"هكذا كان دوما الأمر..."**

هدى: **"ولكن الأمر شاذ وليس عادلا البتة..."**

الأم: **إن المرأة في كفر العتايده تربى على الجهل؛ كي لا تطالب بحقها وأنت تسعين لكسب العلم الذي سيفتح بصرك فيجعلك تنكرين أكثر الذي نحن عليه... إن المرأة هنا كما قلت لا قدر لها ولا حقوق لها، تعلمين حتى في الميراث هي مستبعدة ولولا موت خالك أخي الوحيد لما كتب والدي كل شيء باسمي ولعاد كل شيء له..."**

هدى: **"وهل تعتبرين أن الميراث عاد إليك؟ إن والدي هو المستفيد الوحيد من مالك، استحوذ على كل شيء... أنت المالكة على الورق فقط."**

الأم: **"أسردي علي رؤياك..."**

هدى : "لم أعتد منك الاهتمام بأمري، أنت لم تسألي على مصابي يوما أو على ما أراه في منامي أو أعيشه في واقعي، ربما لأن أمري لا يهمك، فأنا مجرد امرأة مثلك ومثل جميع النساء المحيطة بك وبنا... نسيت شيئا مهما أمي أنا لست مجرد امرأة يمكنك ظلمها دون العودة في الأمر الى قلبك و فؤادك، أنا ابنتك أمي ولو كان الجميع ضدي فأنت أمي ولا يحق لك أن تكوني ضدي أو ضد أختي نور، لأننا نحمل دماءك وعشنا تسعة أشهر في رحمك، أنت لابد أن تحس بنا وبما نمر به من وقت عصيب... لم تكوني يوما أما لنا بقدر ما كنت زوجة لوالدي، أو بالأحرى امرأة تحاول على الدوام إثبات نفسها في كفر المعتدين، أمي إن المرأة في كفر المعتدين ليس معترف بها ولن يعترف بها مهما بذلت من جهد ومهما حققت، تظل مجرد أنثى في عيون الجميع...

حقا إن ظلم المرأة للمرأة دوما حيرني وجمدني وجعلني أقف أمامه عاجزة كليا...

ظلم الرجل للمرأة معتاد وهو الأصل مع أنه أصل فاسد يظل الأصل أصلا على فساده موجود، لا يريد الاضمحلال ولكن ظلم المرأة لأختها المرأة مأساة المرأة، وبصمة عار في حقها ستلاحق بها ما طال الدهر وهذا الشيء حقا مخيف."

الأم: "ماذا رأيت في المنام؟ أرجوك..."

هدى: "**إن موتي ليس بعيد هو سيأتي بحلول الغد.**"

تزم الام شفتيها دون قول كلمة تبدأ في البكاء بمرارة.

لم تسـمح يوما لنفسـها بالبكاء على امرأة فالأنثى من كان عدوها وخصمها دوما.

الأنثى من كسرها حين أخذت زوجها وحلت عليها ضرة...

الأنثى من كسرها حين فضلت الابن على الابنة....

الأنثى من كسرها حين فرحت بولادة الذكر لا الأنثى...

الأنثى من حاربها دوما ممسـكة بلجام الرجل لمقاتلتها، لكنها اليوم لا تبكي أنثى عدية إنها هدى ابنتها ذات السادسة عشر عاما، والتي قد لن يكون لها حق في هذه الدنيا إلا في الأعوام القليلة العجاف التي عاشتها بين كتبها...

هدى: "**أمي مريم العذراء أنبأتني بموتي غدا مرجومة... اللعنة موتي لن يكون سهلا كما أردته... على الأقل سيكون سببا في شيء اجابي واحد أطلعتني عليه مريم العذراء في المنام... إن موتي سيحررك من الدور الذي لعبتيه طول حياتك... أمي ارحلي عن كفر العتايدة لا أريد لنور أن تحي حياتي البائسـة... أمي حافظي على أختي أرجوك أمي، أختي أمانة إياك أن تسـمح لأحد أن يؤذيها، عديني أمي أنك ستحاربين من أجل حياة أفضل لأختي عديني أمي.**"

الأم: **"والدك لن يقدم على ذلك..."**

هدى:" **الأمر غير مهم فقط عديني أنك ستساندين أختي مهما حدث ومهما سيقع، هي ذكية وتستحق أن تنجح وتحقق ما لن أقدر على تحقيقه كوني وصلت إلى النهاية."**

الأم: **"أعدك مع هذا أنت في البداية ولست في النهاية ولا أحد ستطاوعه نفسه على قتل أفضل وأطيب ابنة في الدنيا."**

لا تجيب هدى ولكنها تغمض عينيها وتسند ظهرها على العمود الخشبي الذي ربطت إليه...

تظل الأم جالسة تتأمل ابنتها التي لم يسبق لها أن تأملتها حتى يؤذن المؤذن للفجر وتسرع لأداء الصلاة وتترك ابنتها مربوطة تنتظر قدرها...

لم يتأخر قدر هدى في المجيء فبعد الفجر بقليل تجمع كبار رجال القرية قرب منزلهم منزل عبد الجبار ولحق بهم الجميع الأطفال والنساء والعجائز...

يخرج والد هدى عبد الحق برفقة أخيه من المنزل متجهان نحو الزريبة يفكان قيد هدى ويجرانها جرا نحو الخارج على أنظار الكل...

كانت هدى منهكة من كل ما وقع من هروبها وإمساكها وإعادتها والضرب المبرح الذي تلقته من والدها وعمها وجدها عبد الجبار وكانت تريد أن ترتاح من كل شيء... كانت تريد من الرحيم أن يرحمها فقد

كانت تدرك أن أغلب البشـــر بطبعهم يميلون إلى العنف ومعاقبة الآخر دون فهمه دون فهم الأسباب دون البحث فعليا فيما وقع...

تجر هدى إلى وسـط كفر العتايده وتربط إلى عمود خشـبي آخر على مرآ من الجميع تظل محدقة إلى السماء فالتحديق في الفراغ أفضـل من التحديق إلى هذه الوجوه الحاقدة دون ســـبب، بعد وهلة يقترب منها شـيخ القرية ويقول لها بصـوت خافت: "**شـرحت لجدك ووالدك وعمك كل شـيء، وأنه لم يحدث أي شـيء وأني من شـجعتك على الهروب وإكمال دراستك كونك عبقرية لا أحد منهم صدقني آسف يا ابنتي...**"

تقاطعه : "**إن الإنســـان حين يرغب في هدر دم أخيه الإنســـان فالأسـباب غير مهمة لأن القرار قد اتخذ... إن الإنسـان حين يسـتعمل أخاه الإنسان كوسيلة ليرهب بها غيره ويرغمه على السير على قوانين معينة وضـعها هو، وراغب فيها ومصـر على تجسـيدها فمن الصـعب إقناعه على الرجوع عن أمره، لأن غايته ايصـال الرسـالة للغير مهما كان الثمن، إن جدي يريد أن يخبر أهل القريـة أن المرأة ممنوعة من التعليم وكل من تحاول الهروب من هذا الجحيم لتحقيق حلمها فمصيرها سيكون مثلي... إن الإنسان يصبح مجرما حين يرغب في إرضاخ الغير باســـتعمال القوة وقتل الأفراد لإرهاب الجماعة، والمشـــكل في الأمر اعتقاده بأنـه على حق تام ولا احد من غيره على حق... إن صـــوت الحق لا يسمعه إلا من يرغب في ذلك وجدي ليس كذلك...**"

الشيخ: "**تشهدي يا ابنتي وليرحمك الله وليغفر لنا...**"

تقاطعه: **"إني اتشهد بالله واستشهده على كل ما يقع لي، وعلي ليل صباح هو خالقي ومن أحب يعلم كل ما في قلبي وأنا به أحي واليه أرجع هو دائما معي... هو نور قلبي ووجداني إن كان لليلى حبيب من البشر قيس فأنا قلبي عامر بحب الله أحبه ولم أرد من الدنيا سوى حبه ورضائه..."**

الشيخ: **"سبحان رب الناس..."**

تقاطعه: **"بل سبحان رب الكون والنجم إذا هوى، سبحان الملك والقمر إذا انشق، سبحان رب الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس..."**

الشيخ: **"لا إله إلا الله محمد رسول الله..."**

هدى: **"لدي عندك طلب واستشهد الله عليه أمي وأختي نور أمانة في رقبتك، أخرجهما من كفر المعتدين، أختي لن تقدر على العيش هنا من بعدي، هي ذكية جدا وتعلم أن الذكاء نعمة ولكنه نقمة حين يجعلك تفهم كل شيء على حقيقته في عالمنا هذا."**

الشيخ: **"ونعم بالله..."**

في هذا الوقت تكون نور في المنزل مستلقية تتثاءب تستعجلها أمها قائلة: **"ألا تريدين رؤية أختك هدى؟"**

لم تعلم نور أن هد موجودة في القرية، لقد كانت تعلم كل شيء بخصوص هروب أختها، فهدى تطلعها على كل شيء مع أنها ابنة

العاشـــرة فقط... لكنها لم تعلم بعودة أختها أو بالأحرى إعادة أختها من طرف العائلة.

تحس نور بخوف شــديد على أختها فهي تعرف كل شـــيء يحيط بها وتفهمه جيدا...

نور: "**حسناء أتعتقدين أن والدي سيسامح هدى...**"

الأم: "**لم أرى ابنة قط تناد أمها باسمها...**"

نور: "**حسناء لم تجيب؟**"

الأم: "**بالطبع وليس هناك سبيل لشك.**"

خدعت نور نفسها وأقنعتها بقول والدتها... أحيانا نحن البشر هكذا نضـطر لخداع أنفسـنا لنعيش ولا نموت من الخوف والقهر مع أننا نكون متأكدين من الأمر وما سيؤول إليه.

كانت نور تجر رجليها خلف والدتها جرا في اتجاه المكان حيث هدى.

وما أن يصلا حتى يسمعا الجد يقول: "**حكمها الرجم حتى الموت.**"

تحس بوجع كبير يخرق قلبها وتعتقد أنه انشـــق انشـــقاق القمر وانفجر انفجار البراكين، ودون تفكير ولا حاجة لتفكير تســـرع بكل قوتها حيث أختها وترفع يديها أفقيا كنسر يتأهب للرحيل لتحمي أختها وتغطيها بجسدها وتقول:" **إن كان لا بد من قتل أحد فأنا أولا قبل أختي...**"

الجد وهو يدفعها": "**اغربي عن وجهي يا وجه الشؤم.**"

تقع نور من قوة الركلة وتنزف ركبتيها، تحاول الوقوف ولا يستجيب لها جسدها

تظل الأم متجمدة أمام ما تراه، ولكنها بعد ذلك تقترب لترى ما كان يقع على ابنتيها، ترى الجد وابنيه يبتعدان ليصبحا بين الجموع المتفرجين.

يأخذ الناس الحجارة ويبدؤون بالرجم دون الاهتمام بمن؛ الظّالم أو المظلوم دون الاحتكام إلى العقل الذي وهب لنا من رب الكون لتفكير وعدم الانصياع كالبهائم لمن يقودها.

ترى الأم ابنتيها في مواجهة الكل؛ أو بالأحرى ترى ابنتيها يعتدى عليهما من الكل ظلما وتبقى صامتة لا تقول ولا تفعل أي شيء.

ترى هدى تنزف بعدها ترى نور تقف وتغطي أختها بجسدها الطويل الرشيق، هي صغيرة؛ ولكن تفرع طولها وجمالها الذي وهبها لها الخالق، يجعل الناظر إليها يعتقد أنها شابة في السابعة عشر من العمر.

يتوقف الناس عن الرجم ولكن الجد يحثهم على ذلك قائلا: "**إن من يحمي المجرم فهو مجرم مثله.**"

تقع حجرة على جبين نور فتنزف بشدة فتسمع صوت أختها من خلفها يناديها باسمها، تستدير ناحيتها وهي دوما فاردة كتفيها.

تحس نور وقع الحجارة على رأســـها ولا تتألم من الغضـــب الذي كانت تحس به إن الغضب يجعل الجسد صلبا ويفقده الاحساس بالألم.

تنزف الأختين بشدة على أنظار الكل.

هدى وهي تحدق في عيني أختها: **"أقســـم بالله أني من أشـــرف الناس والله يعلم ذلك وأن هروبي لم يكن إلا من أجل تحصـــيل العلم الذي حثنا عليه الله... ولم يكن من أجل رجل ولا مع رجل..."**

تبتســـم وتكمل: **"أخون الله من أجل رجل أذلني، أليس جدي رجلا... أعصي ربي من أجل رجل عصى الله ليستعبدني، لقد فعلت هذا كله من أجال اقرا... اقرا ...أردت أن أقرا لأحرر عقلي من الأغلال ومن الخوف ومن استعبادي..."**

تبكي نور بشـدة: **"أقســم بالله أن الله لن يترك حق المظلوم مهما طال الدهر... أختي الله ارحم وأجل أختي..."**

هدى: **"أحبك دوما كنت ســعيدة وشــاكرة لله لأنه اختارك أختا لي في هذه الدنيا التي لم أرى فيها يوما جميلا؛ بســبب الرجال الذين أرادوا جعلنا تحت ســيطرتهم، لا تحت أجنحتهم وداخل قلوبهم كما كان ينبغي للأمر أن يكون... اعتني بأمنا واطلبي منها أن تســامحني لأني لم أكن كما تريد، بل كنت كما يجب أن أكون على الصـــواب أو ربما ما كنت أعتقده صوابا..."**

يقع حجر كبير على رأس هدى؛ فيبدأ الدم بالتدفق وكأنه ينبوع.

يتدلى رأس هدى كالمخمور، تسرع نور وتحضنها وتقبلها فيختلط دمهما ودمعهما.

هدى: **"أختي كوني قوية... لا إله إلا الله محمد رسول الله... لا إله إلا الله محمد رسول الله."**

تتلفظ أنفاسها وتموت في حضن أختها.

تبقى الأم تتفرج من بعيد كالغريبة التائهة دون قول أي شيء.

ترى ابنتيها ينزفان يبكيان ولكنها تتجمد من شدة ما يقع أمامها، تحس بأطرافها باردة وبجسدها ساخن وبعقلها يود الانفجار.

يرحل الناس بعدما انهوا المهمة التي وكلت إليهم، وقتلوا روحا زكية دون أن يعتريهم أي خوف من رب الناس، ويتجهون إلى المسجد لأداء الصلاة والسجود للعظيم الذي طلب الحفاظ على الأرواح وعدم هدرها.

لا تلتقي الكبائر مع الصلاة.

لا يلتقي الانصياع لظالم مع حب الاله الواحد الصمد.

رفع القلم عن المجنون ولم يرفع عن المعتوه الذي يأتمر دون تفكير للحاكم... أطاع الناس عبد الجبار وقتلوا هدى دون سبب.

تظل الجثة بين يدي نور مطولا، بينما الأم تظل دوما واقفة ليس بعيدا عنهما، تحدق إلى نور التي لم تجف عينيها ولو للحظة والى هدى التي غدت دون روح.

يقترب رجل وقور من نور ويطلب منها أن تضع أختها.

تحدق إليه وتدرك أنه لم يسبق لها أن رأته وتصرخ: "**إنها باردة ولا أريدها أن تتأذى.**"

الرجل وهو يبكي بشـــدة: "**دعينا ندفن أختك يا ابنتي، إكرام الميت دفنه...**

تبتعد عن أختها بعد أن تذكرت أن الجد طلب ألا تدفن أختها وتترك هكذا لينهش منها الضباع ووحوش الغاب...

يطلب الرجل من الرجال خلفه أخذ الجثة، ويســتفســر من الأم أن كانت تريد مساعدة النساء في تغسيل الابنة قبل الصلاة عليها ودفنها، لا يلقى أي إجابة فيستعجل الرجال لأداء المهمة.

يجيب أحد الرجال خلفه: "**حسنا يا زعيم.**"

تفهم نور أنهم خدم عنده وتقول قبل رحيلهم: "**شكرا لكم.**"

تعاود نور الجلوس على الأرض حيث دماء أختها وتظل الأم واقفة صامتة وكأنها تمثال حجري من زمن الرمان أو الإغريق.

لا أفهم لما كان الرمان والإغريق يعشــقون نحت التماثيل وبناءها، مع أن الأمر مكلف، لو اســتعملوا المال لإشــباع البطون بدل صــناعة التماثيل كان أولى لهم، لكني أحسب أنهم وجدوا حلا مرضيا لهم لإشباع البطون الجائعة لشــعبهم، اســتعمار البلدان الأخرى وتجويعهم لإشــباع بطونهم هم.

أي أن غاية اســتعمار الشــعوب الأخرى هو حماية شــعبهم من الجوع والفقر والعوز، فماذا كان الجد يحمي بقتله لهدى، عاداته أو تقاليده أو مكانته كرجل مستبد للمرأة المستضعفة أصلا في كفر العتايده...

تنام نور على الأرض حيث قتلت أختها، وتجلس الأم قربها دون أن تقول أي كلمة، ولكنها تبقى مستيقظة قربها لتحميها من غدر البشر الذي يفوق الذروة ليلا...

تحدق الأم إلى الســماء وتحاول اســترجاع حياتها الماضــية، وإن كانت حقا تستحق ما يقع عليها من ظلم، وهل تلام في كل ما وقع ويقع عليها، أو ربما جبنها من يجعل بني البشر يتطاولون عليها وعلى ابنتيها اللتين لم يريا من الدنيا سوى قبحها...

تنتزع المنديل الذي كان على رأســها وتغطي به نور النائمة، والتي كانت ترتعد من البرد ومن الظلم الذي وقع عليهم.

تحس بالبرد يضرب قلبها كما تضرب العواصف الثلجية المناطق الجبلية المقفرة، ويهتز كيانها للأمر.

ما أصـــــعب الوحدة التي يحس بها قلبها يا ألهي على ما ينتظرها في المستقبل.

قلبها المكسور يسكنه هم لا حدود له.

آه حين يختارك الهم من بين البشـــر ليســـكن معك ويجاورك في الفراش، فما عليك إلا الصـمت أو الحصـول على القوة الكافية لطرده من فراشك.

لماذا غدى الهم حليفها؟

لماذا اختارها الهم من دون كل البشــر، وقرر أن يعشــقها ويعيش معها بأي ثمن ومهما كان الثمن؟

الوحدة لا تكون بغياب النـاس عنـك ولكن بغيـاب من يفهم من انت وما يسكن عقلك وقلبك من احاسيس وأفكار...

الفصل الثاني:

من الصّعب أن تقبل العقاب على ذنب لم يكن لك فيه يد.

من الصّعب أن تقبل العقاب على ذنب لم يكن لك فيه يد.

ليس قريبا وليس بعيدا جدا عن كفر العتايده بل على بعد خمس ساعات فقط تتواجد العاصمة، حيث ينبض نوع آخر من الحياة المختلف تماما عما هو معتاد عليه في كفر العتايده.

الشـــارع خمس، عابد العمارة ثلاث، الشـــقة خمس، في الغرفة الرئيسية يقبع رجل في الخمسين من عمره على سريره بينما تتخذ الزوجة وضع الوقوف للحديث معه.

منال: **"تعبت أكاد أموت ألا تفهم الأمر... لا أســـتطيع التحمل، اللعنة لماذا الحياة قاسية هكذا علي؟؟؟ لا أطلب الكثير أريد الطلاق ... الطلاق أرجوك."**

فؤاد: **أحبك ولا أستطيع العيش من دونك، ألم تكن كلماتك لي منذ أعوام ليســـت بعيدة أين ذهب ذلك الحب؟؟؟ أم أنه لم يكن هناك حب ليذهب أو يبقى؟؟؟"**

تستدير لتقابله، بينما يظل هو جالسا على طرف السرير والحزن الشديد باد على وجهه الشاحب، يزم شفتيه من الألم النفسي الذي يشعر به في كيانه ويرفع عينيه نحوها ليتأمل هذا الوجه الســـمين الذي طالما عشـــقه وأغرقه في بحار الهوى التي لا عمق لها، وان كان لها عمق فبعمق قلبه وحبه لها...

قامة قصـيرة لا تتعدى المتر والنصـف؛ أنف مدبب عيون ضـيقة وكأنها من شـعب الصـين، شـعر أسـود مجعد، فم صـغير رقيق، بشـرة بيضـاء، ملامح باهتة، جمالها متوسط للغاية، مع هذا يعشقها ولم يعرف غيرها في حياتها وحياته. في البداية كان الأمر صدفة، فتاة في العشرين من العمر تقصد أكبر محامي في البلاد لتطلب منه أن يرفع قضية على أعمامها؛ الذين يريدون أن يأخذوا إرث والدها ويحرموها مما هو لها في الأصل.

قضية رفعت وحق استرجع وقلب أخذ.

هذا ما حدث، فبعد أن أعاد ما لها من حقوق، وقعت في غرامه وبدأت تلاحقه وتعده بالحب في كل مكان وزمان، وبعد أن جعلته يحبها مع إلحاحها الدائم تزوجا، وهاهما بعد خمســـة عشـــر عاما من الزواج المبني على الحب، يســـعيان إلى مرحلة أخرى من الحياة... حياة دون حب.

يقال إن للحب عمر وأن كل شيء فاني والحب فاني أيضا.

يوم زفافهما أخبرته أنها تحبه ولن تحب غيره.

كل شـــيء متحول ومتحرك في هذا الكون والغبي وحده من لا يتغير.

كانت تحبه واليوم ضاع وتلاشى ذلك الحب.

كل شيء يتحول ويتغير ويفنى.

تستدير منال بجسمها القصير السمين وتقول بنبرة من الحزن: **"أجل كان هناك من الحب لك في قلبي الكثير، لا أدري إن كان باقي منه الكثير، ولكني حقا لا أستطيع الإكمال، أنا الآن في الأربعين من العمر وأريد أن يكون لي طفل..."**

تبكي بحزن، تقترب منه وتقف على ركبتيها، وتضع رأسها على ركبتيه وتبكي بشدة وهي تقول: **"أريد طفلا من لحمي ودمي أشتاق إلى طفل يناديني ماما، أحلم بالأمر ليل نهار، حتى غدى الأمر هاجسا عندي ألتوي له وأتلوى منه في كل ثانية..."**

يرفع يده وفي تردد يتلمس رأسها وشعرها المجعد ويقول: **"ألم تقول يوما لي أني طفلك، ولن يفرقنا إحساس الحاجة إلى طفل، هل غدى الطفل أهم مني ومن حبي؟"**

تستدير برأسها وتحدق إلى وجهه الذي أماله إلى الأسفل ليرى تعابير وجهها جيدا وهي تجيبه بصوتها الرقيق: **"الحاجة إلى الشيء أقوى من الحب... إحساس الاحتياج إلى الشيء أقوى من إحساس الوقوع في غرامه."**

يرفع يده إلى جبهته ويبدأ بتدليكها؛ ليزول الألم الذي كان يحس به بسبب الحزن الشديد الذي يكتم على أنفاسه.

منال: **"لقد كنت أرغب في الصبر، ولكن الصبر محفوف بحدود لن نستطيع تجاوزها."**

يبتسم بسخرية: "**محفوف وهل هو شارع ليكون محفوفا بالأشجار؟ أو بشـــيء آخر؟ حياتنا تمنيتها أن تكون غير محفوفة بأمور لا معنى لها، ولكني دوما تمنيتها مملوءة بالحب والسعادة، ولكن الأمر لن يكون كذلك، فمنذ أن علمت أني عاقر تغيرت كثيرا، مع أنك كنت تحاولين جاهدة أن تظهر بمظهر بعيد عنك... مظهر المرأة المتحضـــرة التي تولي الحب القدر الأهم من الاهتمام، مع أني لا أرى المرأة المتحضـــرة إلا كامرأة تهتم في الحقيقة بالمال ونفســـها أكثر من الكل... التحضـــر علم المرأة حب الذات أكثر من حب الزوج والأولاد... في الماضي كانت المرأة تضحي بكل شـيء من أجل زوجها وأولادها، حتى أنه يصل بها الحد أن تضحي بعزة نفسها وترضى أن تهان من الكل، على أن تتخلى على مسـؤوليتها كأم، ولكن مع دخول المرأة فيما يسـمى بالحضـارة، أصـــبحت تضـــحي بالعائلة من أجل المركز، تضـــحي بالزوج من أجل الصديقات، وبالأولاد من أجل المظهر...**"

تقف وتبتعد عنه وتفتح النافذة وتقول: "**كنت أعتقد أن المرأة يمكنها أن تفضـــل دور الزوجة على دور الأم، ولكن قلبي يهف إلى الأمومة أكثر.**"

يبتسم بسخرية: "**كنت تقولين إني بطلك؟**"

منال:" **أنت محام بارع وبطل في عملك، وقد كنت بطلي حين استعدت أملاكي وأعدتها إلي، ولكني اليوم لا أحتاج إلى بطل ولكن إلى من يمنحني حقي في الأمومة.**"

فؤاد: "**الرزاق هو الله وهو من يمنح أو يحرم.**"

تسحب حقائبها التي أعدتها مسبقا وتقول: "**أريد الطلاق... آه نسيت أن أخبرك، الخادمة سماح ستأتي معي.**"

فؤاد: "**هي خادمة أمي و...**

تقاطعه: "**جد لأمك خادمة أخرى.**"

تزوجها حين كان في الخامسة والثلاثين وهي ابنة في منتصف العشرينات من العمر، لأنها أقنعته بأنها تحبه ولن تتخلى عن حبه مهما يحدث، ولكن الحب على ما يظهر ينتهي أسرع مما نتصور... ينتهي فقط هكذا دون سبب أو بالأحرى لأن الرجل لا ينجب.

يسمع الباب يصفع صفعا قويا ويفهم أن النهاية وقعت من منال توقيعا ابديا لا رجوع فيه.

يستلقي على سريره ويبكي بكاء شديدا.

يبكي بكاء النساء في كفر العتايده، على طلاقهن الذي يعني نهايتهن مع أنهن لا يملكن بداية ولا حياة لتكون هناك نهاية محتملة أو غير محتملة.

من حق المظلوم أن يبكي ولو كان رجلا، إن عوقب بسبب ليس له فيه يد.

وهل كان من اختار أن يكون عاقرا؟

هل أراد أن يكون عاجزا عن الانجاب؟

هل له في الأمر يد؟

لماذا نحاســـب على أقدارنا ونحن من نتلوى بها ونســـتلقي على الشوك بسببها.

ينكمش فؤاد المحامي الذي لم يهزم يوما في المحكمة خائفا أمام قدره، وما ينتظره من الهم أو الفرح المشكوك في مجيئه.

فؤاد الذي أبكى الكثير في المحاكم من الفرح أو الحزن، يبكي اليوم وحيدا على سريره وليس له إلا أن يصبر وينتظر المجهول.

لا تحرم نفسك من لذة البكاء حين الانكسار. إياك أن تحرم نفسك من حقها في أن تذرف حزنها لتخرجه، قد يغد دمعك وحزنك يوما ما مطرا تسقى به الزهور في الحدائق.

الفصل الثالث:

الكره إحساس مميّز يجعل من المرء انسانا آخر... انسانا قويّا أمام من يكرهه بعكس الحب، الذي يجعله ضعيفا هائما لا يعي النّهاية من البداية.

الكره إحساس مميّز يجعل من المرء انسانا آخر... انسانا قويّا أمام من يكرهه بعكس الحب، الذي يجعله ضعيفا هائما لا يعي النّهاية من البداية.

تظل حسناء متفرجة على جسد نور المنهك من الحزن على ضوء القمر.

لا تفهم لماذا هي غير قادرة من الحزن أن تبكي.

لا تعرف أن من الحزن ما يتجاوز الاستيعاب... استيعاب الوعي، فحين لا يعي الوعي أين ينتهي حجم الحزن الذي لا نهاية له، يفضل أن يتجمد، أن يغلق عيونه لكيلا يجن أمام هذا الحجم من الحزن الذي لا قبل له عليه.

مع الآذان تسمع خطى أقدام خلفها لا تستدير ولا تهتم للأمر.

تسمع زوجها من خلفها يقول: "**ألن تدخل إلى البيت أنت وابنتك هذه؟؟؟ أم تريدين أن تعوديها على السهر خارج البيت فتصبح مهووسة به كما كانت أختها مهووسة بالهروب، فتكون نهايتها مثل نهاية أختها؟؟؟**"

تنتفض لما سمعته من فمه الخبيث، وتتمنى لو تستطيع أن تقول له: "**أن نهاية هدى أفضل من حياتها... فنهاية من أجل شرف خير من الحياة دون شرف.**

كان شـرف هدى في أن تكمل دراسـتها هكذا كانت تقول دوما لها ولنور.

لا تجيب فيحس بالقوة والغرور ويسـتطرد:" **أم تريدان أن تعيشـا في الشوارع أنت وهذه البنت التي بلاني الله بها كما ابتليت بك أنت؟**"

لم تكن تعرف أنها تكرهه واليوم أصـبحت تفقه أنها تكرهه، تتمنى لو لم تتزوج بـه، لقد جعلهـا من الحزن لا تعي هل عليهـا البكـاء أم الصمت...

لم تقم يوما بمواجهة رجل ولكن الأمر لن يطول ويحدث.

يبتعد وحينها تحس بالدمع يتسارع من مقلتيها، وكأنه في عجلة من أمره للخروج إلى هذا العالم المظلم من كثرة ما فيه من الغدر، والذي لا خير فيه، أو بالأحرى لم ترى فيه خيرا، فالعالم فيه دوما الخير والدنيء، ولكن نصيبها منه لم يكن سوى الدنيء... زوج دنيء...جهل دنيء...حظ دنيء...أقارب أكثر دناءة من الدناءة عينها...

تحس بلسانها يرقص ويترنح كالمخمور داخل فيها، ليرمي بالشتائم التي لم يعرف لها طريق من قبل اليوم.

من النّاس من له قدرة على جعلك حقيرا، ليس لأنك كذلك بل لأن حقارته تتجاوز الحدود لتصـل إلى حد جعل الطيب حقيرا وهكذا هو زوجها.

تقذفه في غيابه بما لا يمكن ذكره، وتمســـح دموعها بظهر يدها، وتصمت حين ترى نور مفتحة العينين ومستغربة من الأمر الذي يحدث.

حسناء: "**علينا الدخول إلى السجن الذي نسكنه والذي حكم فيه على هدى بالقتل... علينا أن نكون أقوياء كي لا نموت وتنهشـــنا الوحوش البشـــرية... علينا ألا نموت من القهر... علينا ألا نموت من أجل هدى من أجل حق هدى أ تفهمين؟**"

تنفجر حسناء بالبكاء والصراخ مثلما لم تفعل يوما في حياتها.

نور وهي تبكي: "**أمي!**"

حسناء: "**من الآن وصاعدا إياك أن تناديني بأمي. فأنا لا استحق الكلمة... من الآن وصـاعدا سـتناديننني كما كنت تناديننني على الدوام حسناء... يظهر أنك محقة في حرماني من كلمة الأم على لسانك فأنا حقا لا أستحقها.**

إنّ الأمّ التّي لا تدافع عن أطفالها ليست أمّا حقيقية.

إنّ الأمّ التي لا تضحي من أجل أطفالها ليست أمّا حقيقية.

إن الأم التي تسمح بقتل طفلتها دون سبب ليست أما حقيقية."

من يوم ولادتها وهي ضعيفة أمام الرجل الذي استعبدها هكذا ظلما وعنادا، ولم تحاول يوما المعاندة وتغيير قدرها التافه، ولكن الرجل في

الأمس القريب تمادى فوق المسموح له في نطاق استعباده وأخذ طفلتها منها دون سبب دون سبق انذار.

سمعت يوما من أحدهم بان الغزال تضحي بنفسها من أجل صغيرها أمام الأسد وتمنحه جسدها لينهشه لتلهيه عن فلذة الكبد.

تتحسس جسدها لتتأكد أن فيه كبدا.

ماذا إن كان هذا الجسد الذي تملكه هي خال من هذا العضو الذي يسمى كبدا.

تتنهد وتتمنى أن تتفجر البراكين الموجودة في الكون كله ليحس الكل بلوعتها وما فيها من حروق الحزن التي تحرق أحشاءها.

عليها الفرار من هذا العالم المتوحش الذي يسمى كفر العتايده، والذي يشبه كثيرا سهول السافانا، حيث يأكل القوي الضعيف ويرقص الذئاب وأشباه الذئاب على بقايا الضحايا والمستضعفين.

في كفر العتايده الكل مدان قبل التأكد من الأدلة، والكل خاضع إلى العدالة البشرية من غير العدالة الإلهية، التي تقتضي دوما شهودا وقاضيا حكيما عادلا يفكر ويتدبر قبل إصدار قرار هام بمقتضاه تتغير حياة كاملة أو تنتهي حياة كاملة.

تسحب نور من يدها وتتوجه إلى منزل عبد الجبار، منزل زوجها والحزن دوما يكتم على أنفاسها المتسارعة، لمد العقل بما يكفيه من

الاكســـجين، ليحي أمام عالم ملؤه الشـــر، أمام عالم لا يفهمه ولم يفهمه يوما ولا يريد أن يفهمه بعدما وقع.

تدخل فتقابلها حماتها بوجه أســود من الغيظ: "**هو دورك اليوم في تنظيف الزريبة وحلب الأبقار أم نسيت الأمر؟**"

خمســة وثلاثون عاما من الحياة لم تحاول فيها يوما أن تجاوب أو تحـارب أحـدا، حتى حين كـانـت مظلومـة لأن على المرأة الخضـــوع والصــمت، لأن المرأة بعكس الرجل، لا يحق لها التنفيس عما في نفســها من القهر، حتى حين تكون مقهورة حد الموت.

تستدير إليها وتقول بنبرة من عدم اللامبالاة: "**ليس لي أي دور ولا أريد أخذ أي دور.**"

تسرع إليها العجوز الشمطاء وفي يدها مكنسة من القش، وترفعها لمعاقبتها بها كما كانت تفعل دوما وهي تقول: "**يا ابنة حمدان ســـأقتلك اليوم.**"

حسناء: "**مثلما قتلتم هدى دون أي سبب ودون أي ضمير...**"

يتحرك جسـدها تلقائيا فتأخذ من العجوز المكنســة وهي تقول: "**لو لم تكون زوجة عمي وجدة ابنتي، لكان لي معك تصرف آخر.**"

ترمي العجوز بنفســها على الأرض وتولول وتبكي بأعلى صــوت لها وهي تقول: "**تضربينني؟ هل وصل بك الحد لضربي؟**"

ترى حســـناء أخ زوجها الذي هو ابن عمها ينزل الدرج بجلابيته الخضراء، وما أن يصل إليها حتى يصفعها وهو يقول: "**أتضربين أمي؟**"

وقبل أن تجيب ترى الكل أمامها؛ عمها المصـــون عبد الجبار ضرتها اعتدال، وزوجة الذي صفعها كريمة.

كريمة: "**عبد النّاصر ماذا يحدث؟**"

عبد النّاصر: "**قليلة الحياء تجرأت ورفعت يدها على أمي.**"

تحدق إلى ابنتها وترى الخوف في عينيها السوداويين، سواد حياتها هذه وتقول: "**نور اذهبي إلى حجرتنا.**"

تأتمر الفتاة بأمر الأم وتدخل الحجرة وتنتظر أمها بعد وهلة تدخل، الأم محمرة الوجه تحمل يدها اليمنى في اليســرى وتجر جرا أحد رجليها، تفهم نور أن أمها تعرضت للضرب الشديد.

تستلقي الأم على الفراش البسيط وتتأوه.

تحدّق نور إلى أمها بحزن وغضـــب، فالحياة لا تبنى على الجبن فقط وتلقي الضربات دون مواجهة، بل على القوة والدفاع عن النفس.

لا تنام الأم ولا نور طيلة الليل، لســـبب واحد أو أســـباب مختلفة ولكن الفكرة واحدة هدى.

عند الفجر يدخل الأب تراه نور وتفهم لما هو هنا، الشجار ومعاقبة أمها لأن أمه غاضبة منها.

هم يعاقبون أمها دون سبب فقط هكذا ضربة جنون أو عقل.

ولكن ماذا عنهم؟ ألا يجب معاقبتهم لجريمة قتل فتاة بريئة؟

تنتفض الأم وتقف وهي تقول: **"ماذا تريد؟"**

عبد الحق: **"ماذا أريد؟؟؟ لقد سمعت بما وقع صباحا وأنا لن أفعل أي شيء، لأن والدي وأخي قاما بالواجب."**

الضـرب ومعاقبة المرأة واجب الرجل في كفر العتايده، وعليه أداءه بكل مصداقية وألا يراوغ فيه أو يبدي فيه أي رحمة وشفقة.

تعاود الجلوس ويظل هو واقفا يحدق إليها دون قول أي شيء.

يال جمالها! الأخاذ الذي أخذ عقله منذ الصـــغر، ولكنه دوما كان متأكدا أنها لا تحمل له أي إحسـاس، لا كرها ولا حبا، وربما لهذا السـبب قبل بقرار أمه وتزوج بامرأة أخرى ابنة خالته اعتدال.

لو أنها فقط تفتح له قلبها، ربما لكان مستعدا لمواجهة العادات من أجلها.

أ هو يعاقبها بالانتقام لأنها لا تحبه؟

أوّلا قبل بالزواج الثاني، وأمس فقط قبل بقتل ابنته دون مناقشـــة الأمر مع وجهاء كفر العتايده، وعلى رأسهم والده عبد الجبار أ هو ينتقم؟ أو يحاول رد الاعتبار بإيذائها وكســـر قلبها وقلبه أيضـــا. فمنذ أن رأى

ابنته ترجم وقلبه ينزف حزنا ولكن الرجل في كفر العتايده لا يحق له أن يظهر حزنه أو البكاء، ففي الأمر انتقاص لرجولته.

يجلس قرب الباب ويحدق في الاثنتين، يظهر أن الصـغيرة أيضـا ورثت من جمال الأم عيون واسعة سوداء، رموش كحلية طويلة ومقوسة، أنف رقيق، فم صغير مملوء، بشرة بيضاء وشعر أسود حريري.

يظل جالسا قرب الباب دون حراك، يتفرج على الاثنتين على ضوء الشمعة حتى آذان الفجر.

ليس كل من تحبه هائم في هواك، وليس كل من تكرهه لكرهك يميل.

الفصل الرابع:
الحب معادلة لا يمكن التنبؤ بحل لها قبل الخوض فيها

الحب معادلة لا يمكن التنبؤ بحل لها قبل الخوض فيها

كريمة امرأة بسيطة جدا، وهي أفضل صديقة لحسناء، وكانت الفتاة المختارة لزواج بالأخ الوحيد لحســـناء، ولكنه مات بســـبب مرض أقعده الفراش لأيام ومن ثم موت بعد حمى.

تستلقي كريمة على فراشها البسيط، تتنهد من الحزن، ولأنها أسوء حظا من الكل، لقد كانت تحب مازن أخ حســـناء من والدها، ولكنه مات وتركها لقدرها المشئوم.

الحب معادلة لا حل لها في كفر العتايده، لأن الرجال من يقومون بحلها وفق ما يقرره عليهم رأسـهم، لا ضـميرهم لأن الضـمير منعدم كليا في هذه المنطقة النائية.

نشأت كريمة في عائلة بسيطة متكونة من الكثير من الأخوة، وفي ســـن مبكرة من عمرها تعرفت على مازن، حين كانت تتردد على منزل حمدان للعب مع حسناء.

أحبها وأحبته في الســـر عن أعين الكل، من غير عينيهما هما وعيني حسناء، ولكن القدر استعجل وأخذه ليتركها وحيدة.

بعد فترة خطبها هذا الشـــرير، عديم الاحســـاس والوجدان عبد الناصـــر، وتزوجته عن كره لا عن حب، وما عســـاها فعله غير القبول والرضوخ.

تســـمع باب الغرفة يفتح وتراه يدخل، وهو يدمدم بأقبح الكلام في حق زوجة أخيه، صديقتها التي تلقت منه علقة لن تنساها حتى هي التي كانت مجرد متفرجة تعيســـة، لن تقدر على نســـيانها مدى الحياة ولن تتحمل أن تكون مكانها.

في لحظة جنون أو تهور، تقول دون وعي منها:" **ألم تكتف أمك بما فعلته لها وبها؟**"

يثور جنونه ويقترب منها وهو يقول: " **أتدافعين عنها بعدما فعلته بأمي؟**"

دون وعي منها: " **أمّك لا يفعل بها لأنها من تفعل بنا على الدوام، أمك أكثر شرا مما نتصور ومما يتصوره أي أحد.**"

وفي عينيه تهديد لها يقول: " **آه أصبحت أمّي هي الشّريرة في كل ما وقع، وصديقتك حسناء هي الطيبة المسكينة؟**"

تصمت ولا تجيب.

عبد النّاصر: "**لو لم يقم عمّي المجنون بكتابة كل أملاكه باسمها بعد موت مازن، لقمت بقتلها للانتهاء من أمرها كي نرتاح منها وترتاح أمي منها، ولكني خائف بموتها أن تذهب كل أملاكها إلى ابنتها الأخرى، وأعرف أننا لن نتمكن من تحصيلها في تلك الحالة بسرعة، فابنتها تلك ذكية ولن تسمح بالأمر.**"

كريمة: " **أمّك تكرهها دون سبب لأنّها...**"

عبد النّاصر: " **لولا حبّي لكي لقمت بضربك حتّى الموت شفيعك حبي لك.**"

تصـــمت كريمة حين تتذكر أنها لم تقم يوما بالوقوف في صـــف صـــديقتها، بل كانت تضـــعها كدرع واقي لتحتمي به من الحماة الشـــريرة التي لا تعرف الرحمة.

لطالما تحججت بأن حسناء من تهاون في الواجبات المنزلية لكيلا تتعرض للعقاب، فهل يحق لها اليوم أن تقول إنها صديقة حسناء؟

في كفر العتايده لا توجد صـــداقة بين النســـاء، فكل واحدة منهن تحاول البقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن وبكل ثمن.

الصـــداقة لا تتواجد بين الضـــعفاء، وفي الحروب حيث البقاء على قيد الحياة بعيدا عن المشاكل هي الغاية الأهم.

غاية المرأة في كفر العتايده هو الوقوف بعيدا عن غضـــب الرجل، والصداقة آخر ما تفكر فيه.

لا صداقة في الحرب، البقاء على قيد الحياة هو الأهم وأهم شيء.

الصـــــداقة مثل الحريّة، لا تنال دون مجهود مدفوع من الأطراف كلّها.

الفصل الخامس:
ليس من العدل مقابلة أخطاء الغير بالصّمت

ليس من العدل مقابلة أخطاء الغير بالصّمت

مضى على موت هدى أيّام طوال أو دهور ودهور، إنّ أخذنا بعين الاعتبار حجم الألم الذي تسبّب فيه الحدث... الحزن يطول من ساعات اليوم ويجعلها أعواما وأعواما... لماذا لا تريد ثورة قلبها أن تخمد، أن تصمت؟؟؟ جرحها ينزف وينزف دون توقّف وكأنّه نهر يجري ليل صباح دون تعب ولا ملل.

كيف يكف الألم عنها أجنحته، وهي ترى ما يقع على ابنتها الوحيدة المتبقيّة من حزن بسبب ما وقع لأختها.

أصبحت نور تجلس في فراش أختها دون حراك ولا كلام ولا أكل ولا بكاء.

كانت السّاعة تشير إلى الثالثة ظهرا، تقترب من نور وفي يدها كأس من الحليب.

حسناء وهي تبكي: " **ألن تآكلي اليوم أيضا؟ إلاّ إن أرغمتك؟ ... هل تريدين أن تموت أنت أيضا ماذا عني؟ ماذا سيقع علي؟ أنت الوحيدة المتبقية لي في هذا العالم... مضى على موت أختك شهرين كاملين وأنت على نفس الحال.**

تقترب حسناء وتقف على ركبتيها وتحضن ابنتها وهي تقول: "**سأموت من بعدك، هذا أمر لن أستطيع تحمّله... هو فوق طاقتي ... نور لا تحمليني فوق طاقتي أرجوك.**"

تأخذ كاس الحليب وتطعم ابنتها بقوّة وتحايل لرفضـها الكلّي للأكل والشّرب، من بعد الانتهاء تستلق قربها.

لم تكن تعرف أن سعادتها متوقّفة على وجود ابنتيها، إلى أن ماتت هدى.

رؤيتها لنور تغنيها عن الدنيا بأكملها.

يحلّ الليل فيدخل الزّوج الذي ولد من أجل المتعة عكسها هي.

يقف ومن ثم يقول:" **اشتقت إليك، شهرين كاملين وأنت تتحججين بهذه البنت... أطلبي منها أن تذهب للنّوم مع أخوتها."**

تجلس من بعد أن كانت مســتلقية وتقول بغضــب: " **وهل لديها أخوة؟ اعتقدت أنّكم قتلتم أختها ولم يتبقّى لها أيّ إخوة؟"**

عبد الحق: " **لديها ثلاث أخوات وأخ."**

حسناء: " **تقصد أبناءك من الزّوجة الثانية التّي تزوجتها بعد عام واحد من زواجنا؟ فبعد أن مات والدي الذي كان عمّك أوّل شــيء قمت به هو الزّواج بابنة خالتك."**

عبد الحق:" **وماذا في الأمر؟ أنا رجل وهو حق من حقوقي."**

لم تقم يوما بمواجهته، ولم تقم يوما بإغضـابه خشـية سـماع كلمة، لطالما خوّفت وهدّدت بها.

يا الله... كم الانســـان كائن غريب، على قدر ما كانت خائفة من الكلمة، أصبحت تتوق وتتمنى سماعها والانتهاء من كلّ شيء والمضي قدما إلى شيء جديد.

من الجيّد أن يواجه الانســان خوفه بعيشــه، والتأكّد من أنّ الأمر الذي يخوّفه ويرعبه، ليس أمرا قاتلا، بل مجرّد أفكار تافهة تعبث به تأخذه وتردّه كما تشاء.

تأكّدت حســـناء أنّها مرهقة من الخوف والعيش في قلق دائم، من أجل هذا الرّجل الذي لا يهمّه أحد من غير نفســه، لا يمكن للإنســان أن يعيش الدّهر كلّه بين مدّ وجزر، بين حرب وحرب.

حســـناء:" **آه هو حقّ من حقوقك، وهل هو حق من حقوقك أن تتصـــرّف في أموال زوجتك دون الرّجوع إليها في الأمر؟ أم أنّ الرجل يحق له كل ما هو جائر وغير جائز؟**"

عبد الحق: " **جادلت وأكثرت الجدال... أنا مشـــتاق إليك وأنا هنا من أجل ذلك، وإن كنت لا تريدين قصدت مخدع اعتدال.**"

تحدّق حسناء إلى ابنتها الموجودة هنا، والتّي أصبحت لا تعي ممّا يحيط بها شــيئا، أو ربّما لا تهتم بشــيء ممّا يحيط بها، فتحسّ بغضــب يعتريها وتقول بغضــب شــديد:" **اذهب إليها ولا تأتي إليّ أبدا، لا أريدك ولا أريد منك أيّ شيء، من تظنّ نفسك؟ أمير ونحن جواري عندك؟ لقد قتلت ابنتي دون سبب، وتهدّدني بشيء تافه مثل هذا.**"

يقترب منها وفي عينيه تهديد ويقول:" **اليوم سأكسر كتفيك...**"

وقبل أن ينهي كلامه، يراها واقفة وهي تقول:" **لو حاولت رفع يدك عليّ لطلبت الطّلاق، وأخذت كلّ أملاكي منك ومن والدك... هل تظنّ أنّي غبية أم ماذا؟ لقد صبرت على كل شيء، ولكنّي اليوم لن أصبر على أيّ شيء... لم يبقى لي أيّ شيء أخاف منه أو عليه، بعد موت هدى سوى نور التّي لا أدري ما بها؟**"

عبد الحق: "**هل أنت مجنونة؟**"

حسناء: "**كنت مجنونة حين سمحت لرجل مثلك أن يسيّرني حسب أهوائه... كنت مجنونة حين سمحت لكم بقتل هدى... كنت مجنونة حين سمحت لنفسي ببكائك حين دخلت على زوجتك الثّانية... كنت مجنونة حين بكيت ولادة طفلك الأوّل منها وليس منّي... كنت مجنونة لأنّي احتقرت ابنتينا وأردت طفلا ذكرا يحمل اسمك، وكأنّ الأمر حقّا مهمّ وما هميّ إن حمل اسمي أو لم يحمل، إن كنت أعيش في جحيم، فالأولى أن اهتم بخلاصي قبل أن أهتمّ بمن يحمل إسمي... دمّرتم حياتي وسمحت بالأمر لأنّي مجنونة، فلو لم أكن مجنونة لما قبلت بالأمر... أنا أيضا لن يكون لي سوى هذه الحياة لأحياها مثلي و مثلك، فلما سمحت لك أن تعبث بها كما تشاء؟... أنا أيضا سأحاسب من الله مثلي مثلك، فلما رضيت أن تقرّر أنت ما عليّ فعله؟ ... أنت لن تحاسب مكاني يوم الحساب... أنا حقّا مجنونة لأنّي كالمجنونة سلّمت لك زمام حياتي التّي وهبت لي من الله كفرصة لن يكون بعدها فرصة أخرى.**"

عبد الحق ســاخرا: "**ما هذا الكلام الكبير؟ ... وهل أصــبحت من المتعلّمين يا أميّة؟**"

حســناء: "**لو كنت متعلّمة لما قبلت بزوج مثلك... مع هذا كلامك مردود عليه، أنا أميّة ولست جاهلة ولا يوجد معلّم أفضل من الهمّ وأنت أذقتني منه أنواعا وأنواعا وعلى كلّ أنواعه...**"

يقترب من نور ويحاول ســحبها من يدها لإخراجها من الغرفة وهو يقول: "**سآخذها للنّوم مع اخواتها وسأعود بسرعة....**"

حسناء وهي تسحب ابنتها من اليد الأخرى وهي تقول:" **لن تأخذها إلى أيّ مكان ســـتبقى معي هنا، أمّا بخصـــوص ما تريده فبإمكانك الحصول عليه من زوجتك الأخرى.**"

عبد الحق: "**ولكنّها ليلتك...**"

حسـناء:" **إن كنت تعتبر اللّيلة التّي تنام فيها هنا معي هبة تتنّعم بها عليّ، فأنا أؤكّد لك أنّها بالنّســـبة لي منذ أن ماتت هدى نقمة أو مجرّد تفاهة تحاول بها إشباع رغباتك.**"

يحدّق إليها باســتغراب، فهو لم يســمعها يوما تحدّثه بهذه اللّهجة الغريبة عنه وعنها أيضا.

يخرج ويغلق الباب بعنف وهو يتهدّدها بشــرّ عقاب ســيحلّ عليها في القريب العاجل.

بعد خروجه تعانق حســناء ابنتها وتحضــنها وهي حزينة تبكي لم تسـتطع حماية هدى مع أنّها المالكة الحقيقية لكلّ هذا الرّزق الذي يتمتّع فيه عمّها وابناؤه الذين لا يراعون الذّمة ولا القرابة التّي تصلها بهم.

تتذكّر موت أخيها يزن ... مات يزن يوم الأربعاء بســـبب مرض أقعده الفراش لأيّام وأيّام لم تحزن ولم تفرح لموته فهي لا تملك من الأمر شيئا في موته، وموته لن يغيّر من وضعها شيئا فهي تظلّ مجرّد امرأة لا حقوق لها في كفر العتايده.

لم يكن هناك أيّ علاقة تجمعها بأخيها يزن فلم يكن يحبّها ولم تكن تحبّه، هو لم يكن ســـوى رجلا مثل جميع رجال كفر العتايده الذّين ينظرون إلى المرأة بازدراء تتذكّر أنّه قام بضــربها دون سـبب عدّة مرات ولم تحاول حتّى الدّفاع عن نفسها.

وضـــعها الاجتماعي المفروض عليها فرضـــا جعلها عديمة الاحساس كحجر لا يجرح لا يكسر لا يتحرّك ولا يبكي...

هي لم تبكي ابنتهـا لأنّهـا لا تعرف كيف تبكي ولم تتعلّم الأمر مسـبقا أو ربّما لأنّها معتادة على تلقّي الأهوال فقط في الحياة فمن شـدّة ما تتلقّاه أصبحت لا تتأثّر.

بعد موت يزن بشـــهر تماما أخبرها والدها أنّه كتب باســـمها كلّ أملاكه وأّن أملاك منزل عمّها أيضـا ستكون باسمها، فقد خسر أخوه كلّ أملاكه واضـطر لبيعها لها حتّى المنزل الذي يسكنه ليس فقط الأرض...

اســتحلفها والدها ألّا توقّع على أيّ شــيء يجعلها تخســر مالها من بعد طلب عمّها ليدها لابنه الأصغر عبد الحق.

كانت تعرف كما كان والدها يعرف جيّدا أنّ طلب يدها كان من اجل مصـــــلحة واحدة تتمثّل في عدم خروج أملاكهم من يد العائلة إلى عائلة أخرى.

تزوّجت بعبد الحق ويا ليتها لم تفعل لم تعش يوما جميلا معه مع أنّها من كانت تملك كل شيء.

أ يعقل أن يســـتعبد المالك الحقيقي لكلّ هذه الأملاك فقط لأنّه أنثى؟

ماذا لو لم تكن أنثى وكانت رجلا؟ هل كان كلّ هذا الظّلم ليقع عليها هكذا دون سبب؟

حتما لو كانت رجلا لما كان الامر ليقع بهذا السّوء وبهذا العنف.

أيّ أنّ المسألة مسألة جنس لا عدل.

يا لانحطاط الفكر في هذا الكفر المقرف المقفر.

ترى ابنتها تستلقي فتحس بحزن شديد يكتم على أنفاسها. ماذا لو قرّرت هذه الابنة يوما الهرب لكي تكمل دراســتها ولكي تتزوّج بمن تحبه كما فعلت أختها هدى؟

تتذكّر يوم طلب ذلك العجوز يد هدى كان الأمر مأساويا بالنّسبة لهدى.

تتذكّر ذلك اليوم جيّدا.

كانت هدى جالسة على أرضية هذه الغرفة الفقيرة من كلّ شيء تبكي بكاء شديدا كانت الدّموع تتساقط كحبات المطر من ذقنها فتقع على الأرض فتختلط بتراب الأرضية فتنبعث رائحة التراب المبلل بالدّموع.

كانت تحدّق إلى ابنتها دون أيّ احساس بالحزن، لم تهتمّ بالأمر، هو قدر كلّ امرأة هنا أن تخضع، أن ترضى بما يقرّره عليها رجال العائلة، فلماذا تمانع ابنتها هذا القدر؟

تتذكّر أنّها لم تكن مهتمّة بدموع هدى، بل كانت منزعجة منها لأنّها كانت في تلك اللّيلة تنتظر زيارة عبد الحق وكانت هدى مقهورة لدرجة كانت فيها تتمنّى النّوم مع أمّها لتحصل على قليل من الدّعم الذي لم تحصل عليه يوما ولم تحاول يوما الحصول عليه.

لم تكن هدى تريد حبس دموعها لأنّ حزنها كان شديدا ومن شدّة انزعاجها من تلك الدّموع تقول: "**أ لن تذهبي للنّمو؟ تعرفين أنّ والدك سيأتي بعد قليل للنّوم ولن يعجبه الأمر إن وجدك هنا.**"

تتوقّف هدى عن البكاء دفعة واحدة وترفع عينيها في غضب وتقول: "**أ هذا ما يهمّك أمّي؟ ماذا عنّي؟ ألا يهمّك أمري؟ أ لست ابنتك؟ ألا يمكنك أن تحسّ بألمي؟ يا إله يا لقلبك أمّي...** "

حســـــناء: "**ماذا تريدين منّي أن أذهب إلى والدك وأترجّاه ألّا يزوّجك؟ أ تريدين أن يطلّقني؟ هل ستفرحين بطلاقي؟ طلاق أمّك؟**"

تبتســـم هدى بحزن وتقول:" **أنت محقّة أمّي، مصـــلحتك أولا قبل حياتي، أو حياة أختي، أنت محقّة أمّي، فما أنا إلّا مجرّد طفلة أتت إلى الدّنيا رغما عنك، فأنت كنت تريدين طفلا وبدل الطّفل أتت هدى... محقّة أمّي حياتك الزّوجية أهمّ من قهر قلبي ومن دفني حيّة**"

تقف وتتعطّر بالمسك وتتكحّل وهي تقول: "**والدك سيأتي الآن ...** "

هدى وبحزن عميق: "**أتمنّى أن يأتي يوم تفهمين فيه أنّ أمومتك أهمّ من زوجك الذي لا يضـــع لك أيّ اعتبار معيّن... أنت مالكة كل شيء مع هذا هو يعاملك معاملة الخادمة... تعرفين أمّي أفضل الموت على الزّواج بعجوز عاش الحياة ويريد زوجة صغيرة معتقدا أنّ الزّوجة الصّغيرة ستعيد له شبابا عاشه وانتهى أمره.**"

تفتح هدى الباب للخروج وهي تقول: "**أتمنى من الله أن يرحمني منكم بأن يأخذني إليه... حقّا كيف لك ألّا تحسّـــي بفلذة كبدك التّي ستكوى... أمّي أتمنّى ألّا تعيش أختي نور حياة الذلّ هذه نحن نستحق أفضل من هذا أمّي.**"

الأمومة استحقاق قبل أن تكون واجبا مقدّسا.

الفصل السادس:
إنّ الثّقة أمر لا يمنح للجميع
بل للمستحقين لها

إنّ الثّقة أمر لا يمنح للجميع بل للمستحقين لها

مضى على دفنه لتلك الفتاة أيّاما عديدة ولكن حزن قلبه لا يريد أن يخمد أو ينطفئ.

من الصّـــعب نســـيان الموت والموتى وخاصـــة إن كان الموت مفروضا فرضا من أنسي لا يحمل أيّ رحمة أو أيّ إحساس في جوفه...

تلك الطّريقة التّي قتلت بها تلك الفتاة ذكّرته بنفسـه وما وقع له من أذى بسبب أهل هذا الكفر المملوء بالشرّ...

منذ أعوام أتت ابنته وابنه وكنّته وحفيده ليزوروه مع أنّه طلب منهم ألّا يأتوا، وكيف لا يطلب منهم ألّا يأتوا أو لا يقتربوا من أهل الكفر وهو من كان الأعرف بهم أكثر من الغير، وكيف لا وهو الزّعيم. أيّ صـحيح إنّه قضـــى معظم حياته في الخارج لأنّ والده الذي كان زعيم الكفر دون منازع قام بإرســـاله للخارج للعيش ولتحصـــيل العلم والخبرة في مجال الأعمال، ألّا أنّه يظلّ ابن المنطقة بعكس ابنيه الذين أنجبهما من أجنبية في الخارج خلال فترة عيشه هناك.

بعد وصـــوله للخارج والعيش هناك تغيّرت أفكاره ونظرته الدّونية للمرأة والتّي ورثها من مجتمعه الذي لم يمنح للمرأة أيّ حقّ من غير حقّها في أن تكون مستعبدة.

أحب زميلة له في الجامعة وتزوّجها، ولكنّه لم يستطع الإتيان بها إلى هذه المنطقة، فلا والده كان سيرضى بالأمر ولا هو كان يرغب لزوجته وابنته التأقلم مع هذا النّوع من الحياة...

عاد إلى كفر العتايده تزوّج بطلب من والده بابنة عمّه دون حب ولا رضاء، فقد كان يحب كثيرا زوجته الأجنبية ولم يكن له أن يحب غيرها، وحتّى أنّه كان يسافر على الدّوام لزيارتها ومساندتها في تربية طفليه الوحيدين، ولم يكن له أن يتخلّى على عائلته فقط لأنّ والده أراد الأمر ونفسه تاقت للأمر... حتّى أنّ زوجته الثانية تفطّنت إلى الأمر وتفهّمته أو بالأحرى هذا ما أوهمته به.

كانت زوجته الأجنبية تعرف كل شيء عنه وعمّا يحدث له وحوله، فلم يكن يخفي عنها شيئا لأنّه كان يحدّثها عن كل شيء يقع له وعليه ومعه... وهكذا كانت هي أيضا معه لا تخفي أيّ شيء عنه وتبلغه بكل شيء... فحبهما كان كبيرا لا يشوبه الكذب والكتمان.

تفهّمت وضعه وعدم قدرته على مواجهة والده وقبلت بالأمر كلّه وعاشت تسانده من بعيد بحبها الكبير إلى أن وفتها المنيّة بعد زمن ليس بالطّويل...

اضطرّ لجلب ابنيه إلى الوطن وتركهما في المدينة لكيلا يكونا بعيدين جدا عنه، كما كان الأمر حين كانا في الخارج مع والدتهما ووكلّهما إلى الخدم، وظلّ هو في كفر العتايده مع الزّوجة الثّانية التّي لم يكن يتحمّلها ولحسن حظّه أنّه لم يرزق بالولد منها.

بعـد أعوام من الإلحـاح والإلحـاح بـالمجيء للتعرّف على كفر العتايده، نفّذ ابنيه الأمر دون الرّجوع إليه} لأنّهما كانا يعرفان أنّ والدهما سيقابل الأمر بالرّفض كالمعتاد؛ ولهذا لا حاجة للرّجوع إليه في أمر رغبا فيه من زمن واعترض عليه من زمن. وأتوا إلى هنا ويا ليتهما لم يأتيا، كان حفيده في ذلك الوقت في السـابعة من عمره، كان سـعيدا بمجيئهم وخائفا في آن واحد، لأنّه كان يعرف أنّ أهل الكفر لن يتقبّلوا ولن يفهموا ثقافة ابنته وكنّته ولا طريقة لباسهما.

ظلّ ابنيه وكنّته وحفيده أسبوعا كاملا في كفر العتايده، وخلال هذا الأسـبوع كان يتلقّى الإهانات والكلام اللّاسـع واللّاذع من أعوان الكفر، ولكنّ الأمر لم ينتهي هنا. بعد أسـبوع قرّر أهل الكفر أن يتصـرّفوا في الأمر وفق طريقتهم المعتادة، فوضـعه كزعيم لا يمنحه الحقّ في أن يحمي امرأة لا تتصـرّف وفق العادات وإن كانت هذه المرأة ابنته أو كنّته...

هجم رجال الكفر على قصـره ليلا لأخذ ابنته وكنّته ومحاكمتهما بالرّجم.

يتذكّر جيدا تلك اللّيلة المشـؤومة كان نائما في غرفته في الطّابق الأول ولكنّه سرعان ما استيقظ على صوت صراخ نجلاء.

سمع ابنته تصرخ فهرع إليها والمسدس في يده وقبل أن يصل إلى ابنته يجد ابنه واقفا قرب غرفة أخته والبندقية في يديه وقرب قدميه جثتين غارقتين في الدّم.

يحدّق الزّعيم إلى الجثّتين ويلحظ أنّ الرّجلين من عمّاله، ففهم أنّ الأمر مدبّر من أعوان الكفر وأنّ رجاله قد تمّ شراؤهم.

اللّيل سيكون طويلا ولن يكون معهم أحد لأنّ رجاله في الأصل من الكفر، والكل متّفق عليه لتدميره وقتل ابنته وكنّته.

الزّعيم: **علاء خذ أختك وزوجتك وابنك وارحلوا على الفور من كفر المعتدين.**

علاء: **أبي ماذا عنك وعن زوجتك فهيم؟**

الزّعيم: **لا تهتم بأمري... أختك وزوجتك في خطر فأهل الكفر سيصلون إلى هنا عن قريب ارحلوا الآن.**

يسرع الأربعة بالرّحيل وقبل الدّخول إلى السيارة يسمع الزّعيم إطلاق النّار ويرى ابنته وابنه جثتين أمامه ويحدّق إلى مكان الإطلاق؛ فيرى عبد الجبار وبعض الرّجال.

يأخذ كنّته من يدها ويرميها إلى المقعد الأمامي في السيارة وحفيده يرميه إلى المقعد الخلفي، ويبدأ بإطلاق النّار عشوائيا على أفراد الكفر وهو يقول: **منيرة ابنك أمانة في رقبتك، دموعك لن تعيدهما، ولكن قوّتك ستبقيك أنت وحفيدي على قيد الحياة هيّا ارحلا الآن.**

استمر في إطلاق النّار على جميع أهل القرية إلى أن ابتعدت السيارة وغابت عن الانظار.

حلّ الفجر وجفّت بركة الدم التّي تشكّلت من دم ابنيه.

لم يأتي أحد من أهل الكفر لتعزيته، دفن ابنيه بيديه بعد أن صلى عليهما وانتهى الأمر بطريقة مأساوية لم يكن يتخيلها. تمنّى لو مات هو أيضا، ولكن حفيده قد يحتاج إليه يوما، ولذا عليه ألّا يموت من الحزن مع أنّ قلبه مدفون مع ابنيه.

بعد أسـبوع من الفاجعة اسـتبين من أن زوجته من منحت الخدم المفتاح الثّاني لغرفة ابنته، وطلّقها بعد ذلك، تخلّى عن جميع عمّاله لتآمرهم عليه واسـتعان بعمّال أجانب عن الكفر تابعين لشـركة في العاصمة يمتلكها والد كنّته منيرة.

بقي في الكفر للإشراف على عمله والعمّال الجدد ولكنّه لم ينسى يوما ما وقع عليه.

وموت تلك الفتاة ذكّره بأحداث تلك اللّيلة المظلمة.

دوما فكّر في أمر واحد وهو أنّه لو لم يثق بعمّاله ثقة عمياء لما قتل ابنيه، فلو قام من الأول بتوظيف عمّال غير تابعين لكفر العتايده لما وقع ما وقع و لقاموا بالدّفاع عنه لا العكس.

إنّ الرّجل في كفر العتايده يرى المرأة أقل منه شـأنا وإن كانت مالكة عمله أو ابنة مالك العمل.

تظلّ المرأة في ذهنه أدنى منه وإن كانت أهمّ منه وأذكى منه.

يا ل ثقة رجل كفر العتايده بنفسـه واغتراره بها على هوانه وقلّة مستواه وماله وشأنه...

الوحدة من بعد موت الأحباب أمر لا مفرّ منه ولابدّ من التعايش معه.

الفصل السابع:

الرحيل عن ديار الوجع أوّل خطوة لنيل الشفاء

الرّحيل عن ديار الوجع اول خطوة لنيل الشفاء

أصـــبح منزل عبد الجبار لا يطاق ولا يحتمل ولابدّ من الهروب والتخلّي عن كل شـــيء، لا يهم إلى أين وكيف ولكن الفرار هو الأهم والهدف.

تستفيق حسناء وتسرع إلى المطبخ لأخذ القليل من الحليب لابنتها فتعترضـــها حماتها المصـــون وهي تقول: **إلى أين؟ هل تعتقدين أنّك في مملكتك؟**

وهل للمستعبد أن يحسّ بملكية الشّيء وهو مجرّد عبد يؤمر فيأتمر دون الخوض في الأمر.

حسناء: **أنا لا أعتقد أنّها مملكتي لأنّها حقّا مملكتي.**

الحماة: **من أين؟**

حسناء: **من أملاك والدي رحمة الله عليه.**

الحماة: **لو لم يمت أخوك يزن لما حصـــلت على شـــيء ولكنت مجرد ابنة دون إرث ولا شيء.**

حسناء: **ولكنّه مات وحصلت على كل ما أنتم فيه من نعيم.**

تحاول الحماة رفع يدها على حســناء ولكنّها تتراجع لأنّ حســناء تقوم بإمساك يديها ودفعها بكلّ قوتها فتسقط الحماة وتتأوه.

حســـناء: **لماذا لا تنادين كالعادة على ابنائك؟ هههه آه أنت بل أنتم كلّكم خائفين من تهديدي.**

تسرع حسناء بأخذ الحليب والدخول إلى غرفتها لتعطيه لنور.

مضـــى على موت هدى زمن طويل ولكن حال نور لا يريد أن يتحوّل لا تتحدّث ولا تأكل...

حسناء: **هل تريدين قتلي لقد أخبرتك أنّ قلبي موجوع ولن أتحمّل هزيمة أو فقدانا آخر أرجوك نور.**

تستلّق حسناء على الحصير بعد شرب ابنتها للحليب وتتذكّر كلّ ما وقع من شهر.

من شهر تسلّلت ليلا من هذا المنزل متوجهة إلى قصر زعيم كفر العتايده بعد أن طلب منها ذلك على لســان شــيخ الكفر الذي ألحّ عليها بالأمر. حبه الكبير لطالبته المتفوقة الحافظة لكتاب الله هدى جعله ممتنا لهذه المرأة التّي انجبتها.

دخلت القصــر وإذا بصــوت قويّ آت من المصــعد يقول: **لم أكن أريد مقابلتك ولكن الشّيخ ألّح عليّ أن أساعدك.**

لا تجيب ولكنّها تحدّق إليه بحزن.

يقف أمامها وهو يقول: **فلندخل إلى الصّالون.**

لم تتصوّر وجود منزل كهذا في كفر العتايده.

تجلس وهي تقول: **أريد فقط أن تعود نور على ما كانت عليه سابقا قبل أن تفجع في شقيقتها الوحيدة.**

الزّعيم: **أ تقصدين بذلك تلك الفتاة التي كانت تمسك ابنتك الأخرى والتّي قتلت في ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه.**

حسناء: **أجل أصبحت لا تتكلّم ولا تهتمّ بأيّ شيء ولا لأيّ شيء. هي حيّة ولكنّها كالميّتة لا تستطعم أيّ شيء ولا تأبه لأمر أحسّ بالخوف عليها وعلى نفسي فأنا ليس لي من غيرها أحد.**

الزّعيم: **لقد شرح لي الشّيخ كل شيء...**

حسناء: **ماذا عليّ فعله؟**

الزّعيم: **وهل تعتقدين أنّه لديّ الحلّ لهذه المعضلة... الأمر بين يديك وأنت من عليك أن تعرف ما عليك فعله لأجل انقاذ ابنتك التّي تعان من الحزن والظلم...**

يصمت حين يرى العبرات من عينيها متدفّقة بغزارة دون توقف.

بعد وهلة يقول بحزن: **عليك الخروج من كفر العتايده في أسرع وقت ممكن... ولكن قبل الرّحيل عليك استعادة كل الوثائق التّي تثبت ملكيتك الكليّة لكل شيء لقد أطلعني والدك على رغبته في منحك كل أملاكه قبل توثيقه لكلّ شيء باسمك وفي حقيقة الأمر أنا من هديته إلى هذه الفكرة من بعد موت يزن أخوك رحمة الله عليه، فلا أحد**

يســـتحقّ ذلك الإرث من غيرك كونك الابنة الوحيدة له من بعد موت يزن...هل تلك الوثائق مع زوجك؟

حســـنا: **لا لقد قامت هدى رحمة الله عليها بإخفائها من بعد أن وجدتها صـــدفة في غرفة جدّها حين كانت تقوم بتنظيفها ووضـــعت مكانها وثائق غير أصلية قامت هي بكتابتها...**

الزّعيم: **يا لها من فتاة ذكيّة ســـمعت عن ذكائها على لســـان الشّيخ ولكنّي لم أصدّق الأمر ولكن ما فعلته يثبت أنّي على خطأ.**

حسناء: **الوثائق لا يعلم بمكانها سوى هدى ونور.**

الزّعيم: **خذي الوثائق وخبئيها عند شخص ثقة...**

تقاطعه وهي تقول: **سأجلبها لك غدا إذا.**

يبتسم ولا يعلّق على الأمر.

يبدأ في شرح الأمور لها والطّريقة التّي ستخرج بها من الكفر دون علم أحد ولا مســـاعدة أيّ أحد من غيره وشـــيخ الكفر، وأنهى الكلام أن طلب منها ألّا تتوقّف عند نقطة موت ابنتها هدى وأن تكون قويّة لكي تتمكّن من انقاذ ابنتها الوحيدة المتبقية والتّي تحتاج الدّعم من أمّها كي تستمرّ بالعيش في هذا العالم الذي سيطر عليه الكثير من الأشرار دون شرف وبدون ضمير ولا إحساس.

تقف حسناء على عجل حين ترى زوج المصلحة يدخل وفي وجهه شرّ مستتر، وقبل أن يقول ما أتى من أجله تقول بغضب: **لن أطيق أيّ**

كلمة من فمك الذي لا يخرج منه سوى السّم ولم نعتد منه سوى المسموم من الكلام مثل الأفعى السّامة لهذا ارحل الآن.

عبد الحق: **كيف تحوّلت كلّ هذا التحوّل؟**

حسناء: **إن القهر يجعل من القط أسدا.**

يضحك بسخرية: **وهل تعتقدين أنّك تحوّلت إلى أسد؟**

حسناء: **لا يهمّ، إلى أيّ شيء تحوّلت، ولكنّ قهر موت هدى لن أسامح فيه ولا عليه.**

عبد الحق: **سمعت أنّك تخططين لتطليقي، وربّما الزّواج برجل آخر، وهل تعتقدين بأنّي سأقبل بأن يأخذ رجل آخر أملاكنا؟ إنّ كلّ ما كتبه لك عمّي لجدّنا في الأصل، أيّ لعائلة آل عبد الجبار وسيبقى الأمر كذلك.**

حسناء: **المال فقط ما يهمّك في الأمر ماذا عن هدى؟ ماذا عن موتها؟ ماذا عن نور وألمها وشقائها؟ ماذا عنّي وعن قهرك لي دوما وعلى الدّوام، وكأنّك تنتقم منّي، مع أنّي لم أكن معك إلّا كالعبدة ولم أطالبك يوما بشيء مع أنّي مالكة كل شيء هنا.**

عبد الحق: **تلقت جزائها...**

وقبل أن يكمل قوله حسناء وهي تصرخ: **أخرج من هنا فورا لا أريد رؤيتك.**

يخرج وكما العادة يتوعّدها بعقاب كبير سيحلّ عليها عن قريب.

تستدير حسناء إلى نور وتقول بصوت خافت: **اليوم سنرحل عن هذه الدّيار التّي لم نتلقى فيها سوى الهم والألم.**

كن قويا حتّى عند الوجع حتّى لا يرى غيرك ضعفك.

الفصل الثامن:
الهروب من كل شيء
من خوفنا وفزعنا
وانكسارنا وسقوطنا
أهم من كل شيء

الهروب من كل شيء من خوفنا وفزعنا وانكسارنا وسقوطنا أهم من كل شيء

تدخل حسناء مع ابنتها وهما مرفقتان بأحد عمّال الزّعيم منزلا فخما في المدينة ويجلسان في الصّالون في انتظار صاحب القصر.

بعد نصف ساعة تدخل امرأة في أواخر السّتينات وهي تسعل تجلس وتقول: **هل أنت هيّ المرأة التّي أرسلها لنا الزّعيم؟ ... لقد أخبرتني ابنتي منيرة التّي هي كنّة الزّعيم بما وقع لك بخصوص ابنتك هدى وبهروبك من كفر العتايده، وأنا التّي اقترحت عليهم جلبك للعيش هنا معي كوني أعيش لوحدي... متأسّفة حقّا لما وقع لك وأتمنّى أن أتمكّن من مساعدتك.**

حسناء: **شكرا لك سيدتي.**

السيّدة: **نادني عمّة هاجر.**

حسناء: **حسنا عمّتي هاجر.**

تقف السيّدة هاجر وتقبّل نور من رأسها وهي تقول: **أعدك بأنّ حياتك ستكون أفضل هنا...**

تنادي السيّدة على أحد خدمها وتطلب منه مرافقة ضيفتيها إلى الغرفتين المعدتين لهما في الطّابق الأوّل.

تستلقي حسناء على سرير فخم لم ترى مثله في حياتها وتتنهّد حين تتذكّر كيفية خروجها من كفر العتايده.

كانت خطّة هروبها محكمة، فالزّعيم مخطط عبقري جدا. لقد طلب من خدمه أن يضـــرموا النّار في زريبة آل عبد الجبار عند الفجر وطلب منها مسبقا أن تهرب حين ينشغل الكلّ في إطفاء النّار.

لقد هربت فجرا وركبت القطار مرفقة بأحد حراس الزّعيم، وبعد ســـبع ســـاعات نزلت في محطة المدينة ووجدت ســـيارة فخمة تنتظرهم وجلبت هي وابنتها مباشرة إلى هنا.

لا تدري كيف ســتكون حياتها من الآن وصـــاعدا ولكنّها لا تتمنى إلّا الأفضل لنور.

شـهر كامل قدّ مضـى دون أن تصـلها أيّ أخبار عن الكفر والأمر لا يهمّ، ما يهمّ هو نور وغير نور لا قيمة له في حياتها.

لقد التقت بابن الســـيّدة هاجر المحامي فؤاد مؤخّرا من أجل أن يســـاعدها فيما يخصّ نور ودخولها إلى المدرســـة ولكنّه اقترح عليها أن تغيّر من اسم ابنتها واسمها لكيلا يتعرّضا للمضايقات والملاحقات.

تردّدت في البداية ولكنّها لم تجد من مخرج آخر ولهذا كان عليها القبول، فالمحامي فؤاد محقّ فآل عبد الجبار لن يتركوها بســـلام وحتما ســـيحاولون إعادتهما من أجل قتلهما وأخذ كلّ الأملاك التّي تعود لها، ولهذا تمّ تغيير لقبهما مع الحفاظ على الأسماء.

تدخل نور وهي تحمل حقيبتها المدرسية، تقبّل أمّها وتسرع إلى المطبخ وهي تقول للخادمة: **عمّتي جميلة هل لي أن أحصل على قطعة حلوى من فضلك؟**

تبتسم الخادمة التّي تجاوز عمرها الخمسين واشتعل رأسها شيبا وتقول: **لم أرى في حياتي فتاة شرهة مثلك.**

نور وهي تضحك: **لم أتذوّق يوما مثل الحلوى التّي تعدينها.**

جميلة: **اجلسي وضعي حقيبتك على الكرسي وسأعد لك كأس حليب مع الحلوى...**

وقبل أن تنهي جملتها ترى المحامي فؤاد يدخل المطبخ وهو يقول: **جميلة هل لك أن تعديّ لي فنجان قهوة من فضلك وأن تبعثيه مع أحد الخدم إلى المكتب.**

جميلة: **حسنا سيدي.**

بعد وهلة تنهي جميلة إعداد فنجان القهوة وتضطر لأخذه بنفسها كون كل الخدم كانوا مشغولين في إعداد العشاء. تحمل فنجان القهوة للسيّد وتتوجه إلى المكتب ولكنّها لا تجده فتتذكر أنّه أصبح يحب أن يجلس للعمل حيث تتواجد حسناء؛ فإن كانت في الحديقة جلس هناك، وإن كانت في الصّالون فحتما سيكون هناك.

تعود إلى المطبخ فتجد نور هناك وهي دوما جالســـة في انتظار الكعك فتقول: **تأخّرت عليك ســـأعد لك فورا كأس حليب لتشـــربيه مع الحلوى.**

نور: **شكرا لك.**

جميلة: **تعلمين لقد مضى على عملي في هذا المنزل تقريبا ثلاثة أعوام ...كان لسـيّدة خادمة قبلي ولكنّها اختارت أن ترحل مع السـيّدة منال طليقة السـيّد فؤاد ولهذا تمّ تعييني مكانها، وفي الثلاثة الأعوام الماضية التي عشتها معهم لم أرى يوما السيّد فؤاد يضحك ولكنّه مؤخرا أصـبح دائم الضـحك والمرح والفضـل يعود لكما... سـعيدة جدّا بالأمر. هو انسـان لا يسـتحقّ إلّا الخير ولكنّ الأمور لم تكن تسـير معه دوما على ما يرام أتمنّى أن تنصلح كلّ أموره عاجلا يا رب...**

تصـــغي نور لكلام جميلة المتمحور كالعادة على أفراد هذه العائلة بتمعّن وبعد أن حصـــلت على ما طلبته منها تتنهّد وهي تقول: **شـــكرا عمّتي.**

بعد أن أكملت أكل الحلوى التّي قدّمتها لها جميلة وهي دوما تصـــغي لكلامها الذي لا ينتهي، تسـرع بالصّـــعود إلى غرفتها تسـتحمّ وتدخل إلى فراشـــها وهي تفكّر فيما قالته السـيّدة جميلة، هي محقّة في قولها حين مجيئهما إلى القصـــر لم يكن المحامي يسـكن مع أمّه ولكنّه

كان يزورها كلّما سمحت له الفرصة ويظهر أنّه منذ شهرين أتى للسكن هنا.

مضى على مجيئهما إلى المدينة ستة أشهر، وفي الستّة أشهر هذه لم يتوقّف المحامي فؤاد عن مساعدتهما، مع أنّهما كانتا تستطيعان فعل بعض الأمور بمفردهما، ولكنّه كان دوما يصرّ على فعل الأمر مكانهما من أجل راحتهما.

أ يعقل أنّه يحمل نوايا أخرى غير المساعدة. ولكنّه انسان طيّب وحتّى الخدم معترفون بالأمر ومجيئه للعيش في المنزل مع أمّه شيء طبيعي.

قد يكون لمن يساعدك أهداف خفيّة لم يفصح بعد عنها.

الفصل التاسع:

نيل السّعادة أحيانا أسهل ممّا نعتقد ولهذا لابدّ من الإسراع وعدم التردّد في الحصول عليها

نيل السّعادة أحيانا أسهل ممّا نعتقد ولهذا لابدّ من الإسراع وعدم التردّد في الحصول عليها

يقف المحامي فؤاد في شرفة مكتبه يتأمّل الحديقة المحيطة بمكتبه وهو يفكّر في أمور عديدة بعد مدّة يتلقى اتصالا من أخته منيرة.

منيرة: **مرحبا فؤاد، هل يمكن أن نتقابل في الحديقة المقابلة لمكتبك أخي؟**

فؤاد: **حسنا أختي مسيرة الطّريق.**

بعد عشـــرة دقائق يجلس فؤاد بجانب أخته على مقعد حجري في الحديقة العمومية وهو يقول: **ماذا هناك منيرة؟**

منيرة: **تعلم عملي كطبيبة يلزمني العمل في اللّيل أحيانا ولهذا أريد العودة للعيش في قصـــر آمنا، لا أريد لجهاد أن يكون وحيدا في المنزل مع الخدم، أريده أن يكون مع العائلة حين لا أكون معه، ولهذا قرّرت مفاتحتك بالأمر قبل المبادرة فيه وتنفيذه كونك عدت أنت أيضـــا للعيش مع أمّي، لا أريد إزعاجك أو مضايقة أيّ أحد إن كان الأمر نوعا ما سيسبب أيّ إحراج أو...**

يوقفها فؤاد بحركة من يده وهو يقول: **أختي ما هذا الكلام؟ المنزل منزلك أنت أيضـــا، ولا يحقّ لي أن أنزعج أو أفكّر حتّى بالانزعاج من أختي الوحيدة وابنها جهاد، أنت وابنك وأمّي كل ما أملك في هذه الدّنيا...**

منيرة وهي تضحك: **لا سيكون لك بعد زمن معيّن أفراد آخرون سينظمون إلينا في قلبك الواسع والحنون سمعت أنّك تريد الزّواج بضيفتنا وهل هي موافقة على الأمر؟**

فؤاد: **فاتحتها في الأمر وهي موافقة ولكن معاملات تطليقها غيابيا من زوجها عبد الحق ستأخذ بعض الوقت، لا أريد تعريضها للمشاكل؛ وخاصة أنّ ابنتها صغيرة وتحتاج إلى الرّعاية والعناية الجيّدة لتنسى ما وقع عليها من هم... تعلمين أختي، أقسم أنّي أحب ابنتها مثل ابنتي التّي لم أنجبها ولن أنجبها كوني عاقر...**

منيرة: **الله كبير أخي... الله كبير أخي أمره إن أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ومن ثمّ الأطباء دوما أخبروك أنّه يمكن شفاءك مع أنّ الأمل ضئيل.**

يظلّ فؤاد مع أخته في الحديقة لزمن طويل بعد ذلك يعود إلى منزل أمّه.

يدخل القصر ويتوجه إلى الصّالون المخصّص للأكل يجد الكل حول طاولة العشاء يجلس على رأس الطّاولة وهو يحدّق إلى نور المركزة على الأكل ويقول بصوت هادئ: **أخبرتني والدتك أنّك تريدين مستقبلا أن تكون محامية مثلي سعيد بالأمر.**

نور: **سأساعد كلّ النّاس الذين يعانون بسبب قوانين الانسان الجائرة التّي وضعها لإذلال أخيه الانسان.**

فؤاد: **ســـعيد بالأمر فعليّا نور، وبمناســـبة حديثنا عن حلمك في المستقبل، أريد أن أعلن شيئا مهمّا متعلّق بالمستقبل القريب وقد فكّرت فيه مرارا وتكرارا.**

الأمّ: **ماذا هناك ابني؟**

فؤاد: **سأتزوّج أنا وحسناء عن قريب ما رأيكم في الأمر؟**

الأم: **نعم الاختيار، حسـناء امرأة صـالحة وطيّبة لم نرى منها إلاّ الفعل الحسن منذ تواجدها هنا معنا، أنا موافقة زواج مبارك لكما.**

لا تقول نور أيّ شيء.

فؤاد: **ألست موافقة نور؟**

نور: **القرار قرار أمّي.**

فؤاد: **ما رأيك يا حسناء؟**

تبتسم ولا تقول أيّ شيء.

فؤاد: **الصّمت علامة الرّضا على بركة الله.**

تتمّ معاملات الزّواج بســرعة كون فؤاد كان خائفا جدّا من تردّد حســناء الذي كان باديا، ويراه في عينيها ســـابقا كلّما اقترب منها وفاتحها في الأمر قبل أن تقبل به أخيرا وتقتنع بعد أصرار كبير منه ومحاولات عديدة منه على اقناعها... احتمالية تغيير رأيّها كانت واردة جدّا لهذا أســـرع وبرمج الزّواج بعد أسبوع واحد من الإعلان عنه.

مضى على زواج فؤاد بحسناء أشهر ولم ترى منه إلّا الجميل حتّى أنّها أصـــبحت مقتنعة أنّ الزّواج نعمة حقيقية حين يكون من رجل مثل فؤاد، هو يحبّها ويدلّلها ويعاملها بالحســنى حتّى أنّه قد أدخلها إلى معهد لتتعلّم القراءة والكتابة والأمر حقّا يروقها، وزد على ذلك هو يعامل نور بدفء وحنان...

تدخل حسناء من المعهد وتجد نور جالسة كالعادة مع جهاد الذي يكبرها بسبعة سنوات، تستغرب من شدّة تفاهمهما مع أنّ الفارق في السّن بينهما مهم نوعا ما... هما لا يكادان يفترقان إلّا حين ذهابهما إلى المدرسة وحتّى حين الذّهاب إلى المدرسة دوما أصرّ جهاد على إيصالها بنفسه إلى مدرستها.

ما أن ترى نور أمّها حتّى تقف وتســـرع إليها وهي تقول: **ما بك أمّي لماذا أبكرت في العودة من المعهد ليس من عادتك المجيء في هذا الوقت هل أنت بخير؟**

وقبل أن تكمل الكلام، ترى أمّها تقع على الأرض مغميا عليها تنادي على جهاد الذي يســـرع بالاتصـــال بأمّه وخاله بعد أن طلب من الخدم مساعدته على رفعها إلى غرفتها.

بعد ثوان يكون الكل محيط بحســـناء المســـتلقية على ســـريرها مفزوعين، بينما تقوم منيرة بفحصها وإعادة فحصها مرارا وتكرارا.

نور وهي تبكي: **عمّتي ما بها أمّي هل هي مريضة جدّا؟**

فؤاد: **منيرة هل تعتقدين أنّه عليّ الاتصال بالإسعاف؟**

منيرة وهي تضـــحك: **الأمر يعود إليك أخي إن أردت الاتصـــال بالإسعاف لأنّ زوجتك حامل فافعل ذلك.**

تتوقّف نور عن البكاء عند سماع خبر حمل أمّها لم تتصوّر يوما حدوث هذا الأمر.

فؤاد: **تعلمين أختي...**

منيرة: **أخبرتك مؤخّرا أنّ نتائج تحاليلك ممتازة وأنّ احتمالية حصولك على طفل كبيرة مبارك يا أخي.**

يسجد فؤاد للخالق الرّزاق الذي رزقه على كبره بعد أن فقد الأمل... يقف فيرى أمّه تبكي بشدّة يعانقها وهو يقول: **أمّ فؤاد ماذا هناك؟**

الأم: **هي دموع الفرحة يا غالي... هي دموع الفرحة يا غالي مبارك لكما.**

أخيرا ســـيحصـــل على طفل، إنّ الحياة غريبة، حتّى زوجته التّي طلبت الطّلاق من أجل الطّفل لم تحمل به، وهو الذي طلّق لأنّه لا ينجب سيكون له ولد من صلبه عن قريب، سبحان الخالق الرزّاق لقد فرّج كربة هاتين الغريبتين اللّتين هربتا من قســوة الانســان، والله فرّج كربته فالحمد لله العظيم.

تغيّر الوضع الاجتماعي لحسناء، فقد أصبحت المالكة للقصر وأصبح فؤاد يعاملها بلطف لا مثيل له، حتّى حماتها أصبحت أكثر لطفا ولا تستطيع أن ترفض لها أو لنور طلبا.

أصبحت حسناء في شهرها التاسع، ولم تعد تقوى على الحركة تنزل الدّرج ببطء فترى نور تدخل إلى القصر والحقيبة المدرسية على ظهرها.

حسناء: **أين جهاد؟ لما لم يأتي معك؟ هل لديه دروس خصوصية لم تخبرني أمّه بالأمر؟**

نور وهي تجلس على الأريكة بعد أن وضعت حقيبتها على الطّاولة: **لا لقد طلب منّي عدم انتظاره لأن صديقا له يسمّى وائل سيذهب إلى الخارج لدراسة هناك وأراد مرافقته مع صديق آخر لهما يسمّى منصف إلى المطار.**

تجلس حسناء قرب ابنتها وهي تقول: **أعتقد أنّ أختك ستلد عن قريب اليوم أو غدا.**

نور وهي تضحك: **سعيدة بالأمر أمّي.**

حسناء: **تمنيّت لو أستطيع أن أسمّيها هدى، ولكن فؤاد متحسّس جدا من الأمر، كون هدى أختك ماتت وهي صغيرة في العمر. على كل لقد اختارت أمّه اسم أمال، ولهذا أنا لن أقدر على منحها اسم هدى...**

تحسّ نور بألم في قلبها وتقول: **بالعكس أمي أمال أفضـــل، نحن لن نعيد هدى بمنح اســـمها لغيرها... أمال لن تعوّض مكان هدى، بل سيكون لها مكانها، لهذا أفضّل اسم أمال.**

حسناء: **أريدك أن تعتمدي على نفسك أكثر من قبل، فلن أتمكّن من أن أكون دوما معك مع مجيء أختك، ولكن الخدم كثر وبإمكانك أن تطلبي منهم أن يساعدوك في كل شيء تقريبا.**

نور وهي تضحك لأنّ أمّها تقريبا منذ زواجها وهي مشغولة بزوجها والمعهد، ولم تكن تمنحها إلّا بعض الثّواني من الوقت يوميا: **حسنا أمّي.**

الزّواج أحيانا لا يحتاج لأعوام من التّفكير للخوض فيه.

الفصل العاشر:
الوديان كلّها تصبّ في البحر مع هذا هو لا يشبع

الوديان كلّها تصبّ في البحر مع هذا هو لا يشبع

تدخل نور إلى القصـــر بعد يوم متعب في الجامعة، تقابلها أمّها بابتسـامة عريضـة عند الباب، تسلّم عليها وتسـألها عن حالها وعن حال أختها، بعد تلقّ الأجوبة، تسرع بالتوّجه إلى الصّالون لرؤية أختها ولتأخذ قســطا من الرّاحة... تجد زوج أمّها جالســا يســاعد ابنته لأداء واجباتها المدرسية.

نور وهي تجلس: **مرحبا...**

فؤاد: **مرحبا نور كيف كان يومك في الجامعة؟**

أمال وهي تعانق أختها: **ماذا أحضرت لي اليوم أخت؟**

نور: **ممتاز عمّي... يا لك من محتالة صغيرة...**

وقبـل أن تنهي كلامهـا ترى المحـامي فؤاد يقف وهو يقول: **نور ســـاعديها أرجوك، فمع التقدّم في السّـــن لم أعد أتحمّل تعليم أحد... وخاصة إن كان هذا الأحد أختك المدلّلة أمال.**

تأخذ نور الكراس من يده وتقول لأختها: **اجلســي قربي وســأشـرح لك كل شيء.**

المحامي فؤاد وهو يفتح الباب لمغادرة الصّالون: **شكرا لك نور.**

بعد ساعات من الشّرح والشّرح، تسمع نور أمّها تنادي عليهما للتوجّه إلى الصّالون المخصّص للأكل، تسرع الأختين إلى الصّالون وهما يتحدّثان ويضحكان.

الكلّ حول طاولة العشاء عدى جهاد.

منيرة: **نور ألا تعلمين أين هو جهاد؟ اتصلت به عدّة مرّات ولكنّه لا يردّ على مكالماتي.**

نور: **اعتقد أنّه مع ناصف، أخبرني أنّ وائل صديقهم في زيارة للوطن لمدّة شهر ولهذا هما معه.**

منيرة وهي تضحك: **هو قليل الكلام وكثير الكتمان، مع هذا هو يخبرك بأدقّ التفاصيل عن حياته، أرى أنّ الأمر حقّا جميل بينكما.**

تقاطعهم أمال: **ماما...لا أريد أن أكل هذه المأكولات... أريد بيتزا فورا...**

حسناء: **في المساء سنأكل ما تريدين الآن كلي هذه المأكولات إنّها صحيّة.**

أمال وهي تربع يديها بغضب وتغير من ملامح وجهها لتظهر عدم رضائها ورفضها الكلّي لما تقوله أمّها: **لا بل أريد بيتزا فورا...**

الجدّة: **حسنا حبيبتي ستشتري لك جدّتك كل ما تريدين.**

تحدّق نور إلى فؤاد المحامي الذي يرتعب منه الكلّ في المكتب وتبتسم، هو لا يستطيع حتّى أن يقول لابنته كلمة لا؛ ليوقف تمرّدها أو حتّى ينصحها كما ينبغي له نصحها باعتباره والدها... أمّها فقط من يحاول ردعها قليلا عن طريق رفض طلباتها الكثيرة التّي لا تنتهي.

بدأت نور تربّصها كمحامية متدربة عند زوج أمّها منذ عامين تقريبا، وفي هذين العامين لم يخصر يوما قضيّة ولم يتجرأ أحد على مواجهته أو رفع صوته أمامه حتّى القضاة يهابونه.

في هذين العامين من العمل معه أو بالأحرى عنده، استطاعت نور التعرّف على جوانب شخصيته القويّة ما جعل إعجابها به كمحام يزيد، ولكن ما أن تدخل المنزل وترى طريقة تعامله مع أمّها أو أختها أمال حتّى تشكّك في كل شيء، وفي مصداقية كل شيء بخصوص شخصيته أو اعجابها به كمحامي فذ.

هو ما أن يرى أمّها أو هذه المشاكسة المسماة أمال حتّى يتحوّل من أسد إلى أرنب.

تتذكّر أنّه منذ أيّام أرادت أمّها شراء سيارة، ولكنّه تحجّج لأنّ السيارة التي طلبتها باهظة الثّمن، غضبت أمّها وتوقّفت عن التكلّم معه ليومين، كاد يفقد صوابه ولم يعرف ما عليه فعله، في الأخير قام بشراء السيّارة لها ومعها عقد من الماس لتسامحه.

أمّا بخصوص أمال فالقصص كثيرة ولا يمكن أن تعد أو تحصى.

منذ عام من الآن خرجت أمال من حديقة القصـــر تلاحق قطها، وما أن رآها تخرج من بوابة القصـر لوحدها حتّى أسـرع خلفها وهو ينادي عليها، وعندما وصــل إلى البوابة رأى أمال تنحني لحمل القط الصّــغير، ولكن شـابا صـغيرا أوقعها بدراجته وهي تحاول رفع القط كاد يفقد حياته، حتّى أنّه كاد يصاب بجلطة قلبية من خوفه عليها.

من خوفه عليه لم يقدر حتّى الذّهاب إليها لاســتبيان ما إن كانت تأذّت، ونور من ذهبت إلى أختها وتفحّصتها وتأكّدت من أنّها بخير.

أمّا بخصـوص الذي أوقعها أدخله للسّـجن وكاد أن ينهي عليه لولا أنّ حسناء أقنعته أن يسامحه بما أنّ ابنتهما بخير ولم تتأذى.

منذ شهرين ذهبت أمال إلى عيد ميلاد صديقتها المفضلة والتّي لم تكن إلّا ابنة وزير الدّفاع وعند وصـولها هناك وجدت شيئا أذهلها لم تكن تملكه؛ حصانا أبيضا.

عـادت إلى القصـــر ومـا أن رأت والـدهـا بـدأت تبكي وتطلـب حصـانا... تتذكّر نور ذلك اليوم جيّدا لأنّها كانت تتمنّى فعل شـيء واحد هو معاقبتها، ولكنّها لم تكن لتجرؤ على فعل ذلك، لأنّها كانت تعرف جيدا أنّ ردّة فعل أمّها سـتكون عادية، ولكن ردّة فعل المحامي فؤاد وأمّه ستكون مخيفة.

شـرح لها والدها أنّه لا يمكن شـراء حصـان لأنّه لا وجود لإسـطبل في الحديقة ولكن أمال لم تكن لتقتنع بسهولة.

أخبرتها جدّتها أنّ جهاد سـيمنحها حصـانا فهو يملك الكثير منها في كفر العتايده، ولكن أمال لم تقتنع وطلبت من جهاد أن يجلب لها الحصان إلى القصر.

تتذكّر نور جيدا ذلك اليوم كان يوم سـبت، كانوا جميعا جالسـين حول طاولة العشاء من غير جهاد، ولكنّه بعد حين دخل وهو يسعل كونه كان مريضا نوعا ما في ذلك اليوم.

ما أن يجلس حتّى يسمع أمال تقول له: **متى ستحظر الحصان؟**

جهاد وهو يبتسم: **وهل أختك تريد حصانا كمهر لزواجنا؟**

يسـتدير جهاد إلى نور ويتأمّلها بعيونه الواسـعة الخضـراء وهو يضحك: **لم أكن أعلم أنّك تحبّين الأحصنة؟ هل تريدين حصانا أم مهرة كمهر لك؟ هههههه**

نور وهي غاضبة: **جهاد توقّف عن هذا فورا.**

تحدّق أمال إلى جهاد بعيونها العسلية التّي ورثتها من والدها وهي غاضبة: **بل هو لي...**

جهاد: **وماذا سـتفعل فتاة في العاشـرة من عمرها بحصـان في المنزل؟ على كل هناك مركز لتعلّم الفروسـية، هو ليس بعيدا من هنا سأدفع لك الاشتراك والأسبوع القادم بإمكانك البدء في ركوب الخيل.**

تربّع أمال يديها كعادتها حين تغضـــب وتغير من ملامح وجهها كّلها.

الجدّة: **جهاد حبيبي أنت تملك العديد من الأحصـنة، أحضـر لها واحدا وأفرح قلبها أرجوك.**

جهاد: **في هذه الحال عليّ شـراء الأرض المجاورة للقصـر وبناء اسـطبل وإحضـار من سـيعتني بالحصـان... من الأفضـل أن تلتحق بالمركز لتعلّم الفروسية.**

المحامي فؤاد: **ألا يمكن أن نبني اسطبلا داخل القصر؟**

جهاد: **في أيّ جهة بالتحديد؟**

المحامي فؤاد: **حيث أشجار الرمّان.**

جهاد: **أشجار الرمّان... خاصة نور.**

يحدّق جهاد إلى نور فيرى أنّ وجهها تغيّر لونه... فيقول: **أشـجار الرمّان ملك لنور قامت بغرسها بنفسها، لأنّ هدى تحب كثيرا هذا النّوع من الأشجار.**

كانت أزهار الرمّان الجنار هي المفضـلة عند هدى وهي المفضـلة عند نور أيضـا، ولم يكن الأمر يخفى على جهاد كونه يعرف كل شـيء عن نور، حتّى التفاصـيل الصّـغيرة التي لا قيمة لها، ومنها حتّى أنّه هو من أحضر لها شجيرات الرّمان التّي غرستها من كفر العتايده.

المحامي فؤاد: **سأطلب من أحدهم غدا قلعها... أمّا بخصوص نور فبإمكانها غرس أشجار أخرى في الجهة الشمالية من القصر... نور أتمنّى ألّا تنزعج من الأمر وأعدك بالمساعدة في الأمر وفي الاعتناء بالأشجار....**

يقاطعه جهاد: **لا حاجة لذلك، سأشتري الأرض المحاذية للقصر وسأبني الاسطبل وسأطلب من جدّي أن يرسل لنا بعض الأحصنة، وسأوظّف من يستطيع الاعتناء بها جيدا.**

أمال وهي سعيدة: **شكرا لك أخي جهاد.**

جهاد بسخرية لأنّه كان يعلم أنّ خاله طالب بقلع الاشجار ليرغمه على فعل ما تريده أمال، فهو يعلم مدى حبّه لنور واستعداده لفعل المستحيل لأجلها: **هو مهر أختك لذا أشكريها هي.**

تتنهّد نور وتقول في نفسها: **أنّ أختها الصّغرى طلباتها كثيرة لا تتوقّف، هي حقا كالبحر كل الوديان تصبّ فيه مع هذا هو لا يشبع.**

الحياة سريعة والأيام تمضي بسرعة ولكن الأوجاع لا تمضي معها، بل تبقى خالدة راسخة تصرخ في قلوبنا كي نسمعها ونتوجّع منها أكثر.

تنزل نور الدرج فتجد جهاد في انتظارها، فتتذكّر قول صديقتها ندين التّي رأته مؤخرا حين أتى إلى الجامعة لأخذها كالعادة... أخبرتها

ندين أنّها لم ترى في حياتها رجلا بوســـامة جهاد واناقته. تتأمّله؛ طويل، رشيق، أبيض البشرة، بملامح سوداء وعيون خضراء.

يحسّ بنظراتها تتفحصّـــــه فيقول ممازحا: **هل تريدين أن نتزوّج فورا؟**

نور وهي تسحبه من يده: **ما هذا الكلام عليّ الإسراع إلى الجامعة أنا على عجل من أمري.**

جهاد: **وأنا أيضا على عجل من أمري بخصوص زواجنا.**

نور: **بعد التخرّج سنتزوّج.**

جهاد: **صـــــبرت لكلّ هذه الأعوام ولم يتبقّى الاّ بعض الأشـــــهر فلأصبر وأمري لله.**

قد يكون الحب من طرفين وأنت لا تفقه.

الفصل الحادي عشر:
دوام الحال من المحال

دوام الحال من المحال

مضـــــى على دخول نور إلى الجامعة أزيد من ثلاث أعوام وهي الآن في سنتها الأخيرة قبل التخرّج.

تدخل القسم فتتذكّر أنّ المحاضرة القادمة ستكون مقدّمة من طرف محامية عالمية تسـمّى نوال منبل؛ هي ضـيفة عزمت من إدارة الجامعة خصـيصـا لتسـدي لهم بعض النصـائح في بعض القوانين الدولية التّي تخصّ معاملات الطّلاق؛ كونها متخصّـصـــة في هذا الفرع الخاص من القانون.

منذ شهر كان الضيّف الذي عزم من طرف مدير الجامعة ليسدي لهم بعض الارشـــادات في قوانين المعاملات الادارية التّي تخصّ الارث والسياسة؛ هو زوج أمّها لقد ضحكت كثيرا من الأمر حين تذكّرت طريقة تعامله مع أمّها وأختها الصّـغيرة أمال، كان الأولى أن يحصـل هو على بعض النّصـــائح في طريقة التعامل بصـــرامة مع الزّوجة العنيدة والابنة المدلّلة.

تدخل نوال منبل الصّف مرفقة بالعميد تصعد على المنصة بعد أن تحيّ الجميع بوقار.

ما أن تراها نور حتّى تحسّ بدقّات قلبها تتزايد دون توقف. طويلة جميلة شـقراء ولكن نصـف وجهها محترق كليّا ومشـوّه تماما حتّى أنّ النّاظر إليها يمكن أن يصاب بالهلع منها للوهلة الأولى.

نوال منبل: **عادة لا أحب أن أخوض في حياتي الخاصـــة مهما كانت الأوضـــاع المحيطة بي، ولكنّي اليوم أحب أن أبدا المحاضـــرة ببعض التفاصيل الصّغيرة أو ربّما الكبيرة عن حياتي... حسنا أنا امرأة ولدت في كفر العتايده...**

تحسّ نور بقلبها يتضـــارب ويهتز وكأن زلزالا بحريا اعتراه فجرف كل الهدوء منه بعد أن اجتاحه وهاج عليه.

تجحظ عينيها ويزداد تركيزها فتغدو كالحيوان المفترس حين لا يرى إلّا فريســـته... وتركّز على نوال منبل وكأنّ لا أحد غيرهما موجود في الصّف.

نوال منبل: **أنا امرأة ولدت في كفر العتايده من امرأة قاصـــر لم يتعدّى عمرها الخامســـة عشـــر عاما ولهذا تيتمت يوم ولادتي. تماما أحســب أنّ جسـد أمّي كان أصـغر من أن يتحمّل الحمل؛ ولهذا فارقت الحياة بعد ولادتي بســبب نزيف حاد... بعد شـــهر تماما من وفاة أمّي توفي والدي جراء ســقوطه من على حصــانه يوم زفافه؛ فهو لم يحزن حتّى أربعين يوما على القاصـــر التّي فارقت الحياة، وأعدّ لزيجة أودت بحياتـه، وهكذا غدوت يتيمـة من الطّرفين... تربيت عند عمّي وكانت الحياة قاســية جدّا؛ لأنّي مجرّد امرأة، والمرأة في كفر العتايده لا بد أن تذلّ ليرضى الرّجل.**

دخلت الجامع فتفوقت، فأردت اكمال الدراســـة، ولكن القدر كان أقوى منّي؛ فما أن بلغت أربعة عشـــر عاما حتّى تدافع الخطّاب على القاصـــر التّي كنتها من أجل الزّواج بها، وبالطّبع كان على عمّي أن يوافق على أثرى عريس ليستفيد من اليتيمة التّي قام بأخذها إلى منزله بعد وفاة أخيه الوحيد.

وقع الاختيـار على العريس الأثرى؛ والـذي كـان عمره يتجـاوز الخمســين، تألّمت ولم أتحمّل. بكيت واعترضـــت ولم يهتم أحد بأمري ورفضي.

قرّرت الهروب وهربت ولكنّهم أمسكوا بي وأعادوني.

ترى نور نوال منبل تضـــع يدها على الجهة المشـــوهة من وجهها فتحسّ بألم في قلبها، فتضـــع هي أيضـــا كفّها على النّدبة التّي حفرت في الجهة اليمنى من المنطقة العلوية من جبينها قرب منبت شـــعرها تماما؛ جرّاء حجر وقع عليها حين كانت تحاول حماية أختها بجســـدها يوم مقتلها، يا إلاهي لماذا هذه المرأة هنا؟ هل أتت لتذكّرها بالماضـــي لتفتح قلبها بخنجر حاد؟

لقد اعتقدت نور دوما أنّها نسـيت الماضـي، ولكنّها في الحقيقة لم تنســـاه يوما، بل كان هنا معها متخفيّا منها في أحد زوايا قلبها؛ وها هي هذه المرأة تفتح له الباب ليتنفس ليري وجهه من جديد.

نوال منبل: **قرّرت الهروب وهربت ولكنّهم امسكوا بي وأعادوني ووضعوني في الزريبة كالشّاة التّي تنتظر ذبحها في الأجل القريب... فإنّ كان لحم الشّاة سيأكله البشر فلحمي ستنتفع منه الضّبع، وهذه هي العادة في كفر العتايده... بكيت طوال اللّيل ودعوت الله أن ينجيني منهم... قبل الفجر رأيت العريس الذي اختير لي من طرف عمّي يدخل وفي يده قارورة صغيرة، وقف أمامي وأنا التّي كنت مربوطة كالبهيمة إلى الدّعامة الخشبية مربط البهيمة، وبدأ في التّحديق إليّ بغضب وغلّ، من بعدها قال لي: سأشوّه وجهك كما شوّهت سمعتي بهروبك منّي، وهكذا ستحسّين بألم ما فعلتيه يا فاسدة.**

من بعد ذلك أخذ القارورة وفتحها ورما محتواه على وجهي وإذا هو الأسيد، أو حمض الهيدروكلوريك... والنّتيجة كما ترونها على وجهي.

تحسّ نور بالدّموع السّاخنة تنساب من عينيها لتسري على خديها فتقع على الطّاولة فتتناثر كحبات المطر في يوم حزين عاصف.

فجأة تحسّ نور بأنظار الجميع وخاصة بأنظار نوال منبل تتفحصّها بحثا عن السّبب وراء هذا البكاء الشّره والشرس الذي لا يريد التوقّف.

نوال منبل: **وإذا هو الأسيد، أو حمض الهيدروكلوريك... والنّتيجة كما ترونها على وجهي... بعد أن وقعت المادة على وجهي بدأت**

أصـرخ من ألم الاحتراق من المادة، ولكن صـراخي وألمي لم يشـفعا لي ولم يشفيا غليله العميق الذي كان إرث الرّجل في كفر العتايده ضد أيّ امرأة تقول لا أمامه، أو تحاول أن تطالب بالعدل الذي هو حقّها أصلا.

تعود الذاكرة بنور إلى ذلك اليوم الذي حاولت دوما ألّا تتذكّره، ولكن هذه المرأة أتت هنا من أجل أن تعيدها إلى الماضـي متعمّدة أو لا، لكن النّتيجة تبقى واحدة.

قضـــت أختها هدى اليوم الأخير أو بالأحرى اللّيلة الأخيرة من حياتها مع البهائم، يبقى أنّ البهائم أرحم منّا نحن البشر أحيانا.

تتذكّر مظهر جســد أختها الذي لم تكن تريد تذكّره رفقا بنفســها، حتّى لا تموت بجلطـة من القهر أو بـأزمـة من الحزن... كـانـت أختهـا طويلة متفرّعة الطّول مثلها، بيضــاء وبملامح سـوداء مثلها أيضــا، غير أنّهما تختلفان في شــيء واحد هو أنّ عيونها واســعة جدّا أم عيون أختها كانت ضيّقة جدا

لو كانت هدى حيّة لكانت اليوم في الثّامنة والعشـــرين؛ فالفارق بينهما كان ســتة ســنوات فقط من العمر... ولكانت زوجة النّذل الطمّاع الذي طمع بأكثر ممّا هو حقّه في هذه الحياة، كيف يطمع رجل كبير في طفلة لم تتجاوز ستة عشر؟

نوال منبل: **لم يكتفي بتشويه وجهي، كان غلّه كبيرا وكان لابدّ أن يخرج منه جزءا، لهذا أخذ من جيبه خنجرا وطعنني به في أحشـائي كي**

أموت أو أغدو امرأة لا تستطيع الانجاب كما هو الحال حاليا... بكيت وفقدت وعيي وحين استيقظت وجدت نفسي في المستشفى في المدينة مع شيخ الكفر محمود شندل، فبعد أن فقدت وعيي اهملني الكل في الزريبة كجثّة لا قيمة لها، لهذا أخذ هو الجثّة التّي لم يهتمّ بها أحد لدفنها ولكنّه لم يدفنّي لأنّه كان يعلم أنّ الرّوح مازالت تدبّ في جسدي وهذا ربّما ما انقذ حياتي... اعتقادهم بموتي من جعلني أحيا وأيضا شجاعة الشّيخ محمود شندل...

يزداد بكاء نور وتحسّ أنّها لم تعد تقوى على تحمّل ما أتت هذه المرأة لتحدّثهم به، فتسرع بالوقوف والجري نحو الباب على أنضار الكلّ الذين بقوا حائرين أمام تصرّف أفضل طالبة وأذكى طالبة في الجامعة كلّها.

تبكي نور مطوّلا في حديقة الجامعة، بعدها تتذكّر أنّه لم يبقى إلاّ بعض الثّواني على انتهاء محاضرة المحامية العالمية المتخصّصة في الطّلاق والشؤون العائلية نوال منبل، فتسرع إلى الصّف لتصل إلى هناك ترى أنّ كلّ الطلاب قد خرجوا من الصّف. تدقّ الباب وتدخل إلى الصّف، تجد المعيد ونوال منبل جالسان على كرسيين على المنصة يتحدّثان.

يحدّق المعيد إليها بغضب وهو يقول: **هل أنت هنا للاعتذار على المسرحية التّي قمت بتمثيلها وأداء كل أدوارها لوحدك منذ ساعتين من الآن؟ لم أتصوّر أنّ أكثر طالبة تفوّقا عندنا والتّي اختارها المحامي فؤاد**

حقي لتكون وريثة مكتبه، بإمكانها التصرّف بهذه الطريقة التّي لا يمكن أن أصفها إلّا بعدم اللامبالاة وقلّة المسؤولية...

تقاطعه نور بصـــوتها الذي كان يوحي برغبتها في البكاء وهي تقول: **هل بإمكاني العمل عندك سيدتي؟ أنا مستعدّة أن أهبك حياتي إن لزم الأمر...**

نوال منبل وهي تضـــع يدها على كتف المعيد ليصـــمت ويتركها تجيب بنفســـها: **هذا لا يكفي... الكلّ يتمنّى العمل معي أو عندي؛ وخاصة بعد اعطائي لمحاضرة لهم أعرض فيها كل شيء... ولكن هذا لا يكفي، وزد على هذا كون زميلي المحامي فؤاد حقي الذّي احترمه كثيرا اختارك قبلي خليفة له فأنا لن أقبل بك مهما يكن...**

تبدأ الدّموع تنساب مرّة أخرى من عيني نور.

المعيد وهو يراها تبكي مرّة أخرى: **ماذا هناك اليوم ما بك؟ لم أراك يوما تتأثّرين بشـــيء... أقصـــد ليس من عادتك التأثّر بشـــيء، واليوم تريدين خلق عزاء من لا شيء...**

تقاطعه نور بصـــوتها المبحوح الجميل وهي دوما تبكي: **بعد أن ســـاعدك على الهروب من الكفر رحل ولم يعد إلى كفر العتايده، ولهذا ابن أخيه عمر المسمى مروان شندل من أخذ مكانه كشيخ في الجامع، ولكنّه لم يستطع انقاذ أختي ولهذا قتلت أختي...**

ترفع نور خصلات شعرها الحريري المتساقطة على جبينها لتري الاثنين النّدبة الموجودة على جبينها وهي تقول وهي دوما تبكي: **ومثلك لم أقم بأيّ عملية تجميلية؛ لأنّي أردت الاحتفاظ بهذه النّدبة؛ لأنّ هذه النّدبة من ذاكرتي، هي ذاكرة الظّلم الذي تلقيته والذي لابدّ عليّ ألّا أنساه وأن أعيش معه وله لكي أحقّق من أجله الكثير ولكي يذكّرني أنّه عليّ ألّا استسلم... وعليّ أن أساعد كل من في نفس المركب معنا...**

تقف نوال منبل وهي تقول للمعيد: **هل بإمكانك أن تتركنا لوحدنا من فظلك...**

تطلب نوال منبل من نور أن تصعد على المنصة لتجلس قربها على الكرسي الذي كان المعيد يشغله قبل خروجه لتروي لها كل التفاصيل؛ كونها قرّرت أن تجعل منها خليفة عملها في المكتب وفي الجمعية التّي أسستها مع مجموعة من النّساء الأخريات والتّي تسمّى جمعية حقوق المرأة المضطهدة والمعروفة عالميا...

دوما أرادت نوال منبل أن تجد من يخلفها بعد رحيلها إلى العالم الآخر، وها هي ذي تلتقي مع الشّخص الذي حلمت دوما به... امرأة متفوقة ... إمراة ذكية... إمراة شجاعة... والأهم إمراة من كفر المعتدين... والأهم من الأهم إمراه ذاقت القهر مثلها وستعمل بجدّ مثلها لتتحرّر منه وتحرّر الأخريات منه...

لابدّ من العودة إلى الماضي قبل الاقدام على الدّخول في المستقبل.

الفصل الثاني عشر:

التّغيير يبدأ بفكرة

التّغيير يبدأ بفكرة

بعد انتهائها من الحديث مع نوال منبل تخرج نور من المدرج متوجهة نحو بوابة الجامعة الفخمة، وكالعادة تجد جهاد في انتظارها بسيارته الفخمة، وكالعادة يفتح لها باب السيارة وكالعادة يدخلها من بعد ذلك يدخل هو ويغلق الباب، وكالعادة يقترب منها وكالعادة يغدقها بالحب ويشبعها قبلات تلو الأخرى حتّى لا تكاد تستطيع التنفس قبل أن يبتسم ويطلب منها في أيّ مطعم فخم تريد أن تأكل أو تشرب أيّ شيء تشتهيه، وكالعادة تترك له حرية الاختيار وكالعادة يبتسم وهو يشعل السيارة وهو يقول لها: **أنت الوحيدة في حياتي والأخيرة**، وكالعادة تجيب وتقول: **أنا أيضا أحبك ولا أرى غيرك رجلا**. ولكنّها اليوم ليست على عادتها لهذا لم تقل له ما اعتاد سماعه، لهذا أوقف السيّارة على غير العادة قبل الوصول إلى المكان المقصود وانتزع حزام الأمان واقترب منها وبدا في تقبيلها دون توقّف حتّى اسمعته ما اعتاد سماعه منها، من ثّم دمدم في أذنها بعض الكلمات التّي طارت في الزّمان وأصبحت من الماضي قال لها: **أفضل هذا.**

تبدأ في فرك يديها على غير العادة ولهذا تسمعه يقول: **أنت اليوم على غير عادتك حبيبتي هل هناك أمر يزعجك؟**

تجيب: **لا...**

يأخذ يدها ويبدأ في تقبيلها وهو دائما يقود السّارة: **متى ستقرّرين أنّه حان موعد زواجنا، أنا لم أعد أستطيع أن أصبر مطوّلا، نحن نعيش في نفس المنزل والكلّ يعلم بحبنا وسعيد بالأمر لا أفهم لما لم نتزوّج بعد؟**

لا تجيب لهذا يكمل ويقول: **أنا أحبك ولا أستطيع العيش دونك أنت تعرفين هذا أليس كذلك؟**

نور وهي تحدّق إليه: **جهاد هل يمكننا اليوم العودة إلى المنزل مباشرة؟ أنا متعبة جدا أرجوك.**

يستدير بسيارته ويعود إلى القصر، وكالعادة قبل أن تنزل من السيّارة كان لابدّ عليها أن تمنحه بعض الوقت ليقبّلها كما يشته، من بعد ذلك تقوم بترتيب شعرها أمامه، أو ربّما بمساعدته من بعد ذلك ينزلان معا ويتوجّهان إلى القصر ويدخلان معا.

وكالعادة كان لا بدّ أن تجد أمّها في انتظارهما لتسلّم عليهما وترحب بهما وهي تقول: **العشاء قد أعدّ، أسرعا في تغيير ملابسكما لنأكل جميعا معا.** وكالعادة كان لا بدّ أن تقول: **حسنا أمّي الغالية** وأن يقول جهاد: **حسنا خالتي.**

ولكنّها اليوم ليست بخير لهذا تقول: **أنا لست جائعة بإمكانكم الأكل دوني...**

يقول جهاد نفس ما قالته ويلحق بها وهي تصعد الدرج يمسكها من يدها وهو يقول: **الآن ستخبرينني بما يحدث معك نور.**

نور وهي تسحب يدها من يده: **لا شيء أرجوك.**

وقبل أن يصـــرخ في وجهها يرى خاله ينزل الدرج، لهذا يبتعد قليلا عنها وهو يقول: **مرحبا خال.**

وهي تصعد الدرج بسرعة لتهرب من جهاد: **مرحبا عمّي**

فؤاد: **مرحبا بكما.**

لا يتجرأ جهـاد على ملاحقتهـا إلى الطّـابق الأول حيـث غرفتهـا وغرفة خاله وجدته وأمال، ولهذا يصـــــعد إلى الطّابق الثّاني حيث غرفته وهو غاضب منها لأنّها هربت منه قبل أن تطلعه على ما يحدث.

يدخل غرفته وهو غاضب ويبدأ في الاتصـال بها، ولكنّها لا تجيبه متعمّدة أو لا، ولكن الأمر يثير أعصـــابه ويجعله يتمنّى النّزول والدّخول إلى غرفتها ومعاقبتها والتهامها، ولكنّه يهدئ من روعه لأنّه يعرف أنّه عليه عدم تجاوز حدّه، فمنذ أن عرف خاله بحبهما منذ أعوام وأعوام كان شـرطه إن أرادا أن يسكنا معا في هذا المنزل هو ألّا يدخل غرفة نور ولا الطّابق الأول من أصـــله، أمّا نور فكان عليها ألّا تصـــعد إلى الطّابق الثّاني مهما يحدث مع هذا عادة هو شـــخص هادئ ولكن الأمر حين يتعلّق بنور فالقواعد تتغيّر.

يحلّ الصّباح ويجلس الكلّ كالعادة حول طاولة الإفطار كون اليوم يوم عطلة أسبوعية إلّا نور التّي فضّلت عدم النّزول بسرعة لأنّها كانت مرهقة من التفكير في الماضـــي الذي عاد من جديد إليها ليخرب عليها كلّ شيء ويغيّره إلى الأحسن أو الأسوأ.

يحسّ جهاد بالانزعاج ولكنّه يصــمت فهو من النّوع الذي لا يحب كثرة الكلام.

أمال ذ: **رقي صـــديقتي أخبرتني أنّها ســـتذهب مع عائلتها في العطلة القادمة إلى أســتراليا، بابا هل يمكننا أن نذهب نحن أيضــا إلى استراليا؟**

المحامي فؤاد: **لا أســـتطيع فوالد رقي رجل أعمال ووالدك مجرد محامي...**

تقاطعه أمال: **ولكن أخي جهاد رجل أعمال وقد أخبرتني رقي أنّ والدها أخبرها بأنّه من أثرى رجال العالم ولهذا نحن أيضـــا بإمكاننا الذّهاب إلى أستراليا...**

تدخل نور بملابس النّوم من غير العادة فتصــمت أمال حين ترى شـــعر أختها الأســـود الحريري مخربا كليّا لم تقم نور حتّى بترتيبه أو تصفيفه قبل النّزول.

أمال: **أخي جهاد...**

تقاطعها أمّها وهي غاضبة: **أمال دعينا من التّفاهة الآن ... نور أهذا مظهر تنزلين به... ماذا يحدث يا إلاهي؟ يكفيني أختك التّي لا تفكّر إلّا في المال والسّفر وهي ابنة الحادية عشر فقط...**

يتأمّلها جهاد ويقوم بالتهامها بعيونه لأنّها أول مرّة يراها بملابس النّوم فلم تكن تخرج من غرفتها هكذا.

لا تجيب نور ولكنّها تضـــع يدها على رأســـها الذي كان يريد الانفجار.

أمال: **أخي جهاد هل نسافر إلى أستراليا؟**

نور للخادمة: **من فضلك هنادي أريد كأس قهوة...**

هنادي: **فورا سيدتي...**

أمال بإلحاحها المعتاد: **أخي جهاد أرجوك هل ســـنســـافر إلى أستراليا؟**

جهاد: **هل تريدين أن تأتي معي نور؟ ...أقصد معنا إلى أستراليا؟**

نور: **لا...لا أريد الذهاب فعملي...**

وقبل أن تنهي كلامها تسـمع صـراخ أختها: **أنت حقا لا تحبينني تعرفين أن أخي جهاد سـيقبل بالسـفر إن أنت قبلت المجيء ولكنّك لا تريدين...**

تحدّق نور بنوع من الغضـــب إلى أختها على غير عادتها وتقف وهي تقول: **شهية طيبة ولكنّي لم أعد أستطيع الأكل.**

تخرج نور مسرعة وتتوجّه إلى غرفتها وقبل أن تصعد الدرج تحسّ بيد جهاد تسحبها.

يسـحبها إلى الصّـالون القريب من المطبخ ويغلق الباب خلفه وهو يقول: **ماذا هناك؟**

نور: **لا شيء.**

جهاد: كيف **لا شـــيء... ليتك رأيت وجهك وطريقة تحديقك إلى أختك الصّـــغيرة هل أنت مجنونة؟ ...هل نســـيت أنّها مجرد طفلة في العاشرة.**

نور: **قلت لك لا شـــيء ومن ثم هي أختي ومن حقي الانزعاج منها حين لا يروقني تصرفها.**

جهاد: **وماذا فعلت أختك حتى لا يروقك تصرفها؟**

نور: **أف جهاد أف...**

تغلبها الدّموع فتصمت.

يفهم أنّها ترغب في البكاء ومن أنّها منزعجة جدا يصـــمت قليلا ومن ثم يقترب منها ويحوطها بيديه ويقول: **ماذا هناك حياتي؟**

نور: **أريد أن أستقيل من مكتب خالك فؤاد... سأتخرج بعد شهر و...**

جهاد: **لماذا هذا القرار المفاجئ؟**

نور: **من حقّي أليس كذلك؟**

وهي دوما في حضنه: **حسنا وأين قرّرت العمل بعد أن تستقيلي؟ في جمعية حقوق المرأة المضـــطهدة مع نوال منبل في مكتبها الذي يعمل على إثارة العداوة بين الرجل والمرأة...هل هذا هو حلمك الآن... على كل سأفكر في الأمر لأقرّر كيف عليّ أن أفاتح خالي في الأمر.**

نور وهي تبتسم: **هو ذلك...**

مضـــى على تخرج نور عام وعلى دخولها إلى مكتب نوال منبل للعمل عام وشهر واحد، تغيّرت طباع نور كليّا خلال هذه الفترة فأصبحت تطيل المكوث في الخارج وتغيّرت أفكارها فلم تعد تفكّر بأحد ســـوى العمل.

يدخل جهاد إلى القصـــر ليلا بعد ســـفر دام عاما تقريبا يســـتحمّ ويسرع إلى طاولة العشاء للالتقاء بالكل وعلى حدّ الخصوص نور.

يسلّم على الكل ويجلس مستغربا من كونها ليست هنا.

المحامي فؤاد: **أطلت في ســـفرك كثيرا هذه المرّة عادة حين كنت تسافر لتفقد شركاتك وأعمالك كنت لا تطيل السّفر على الحد الأقصى**

شـــهرين أو بعض الأشـــهر... وزد على ذلك أنت لم تعلم أحدا بوقت عودتك ... لم أكن أعرف بعودتك اليوم ...لما لم تخبرني؟ ...

يلاحظ جهاد نوعا من الحزن على وجوههم على غير العادة حتى أنّ ابنة خاله الصّـغيرة هادئة لا تطالب بشـيء على غير العادة في كلّ الأحوال كان دائم الاتصـــال بنور وهي لم تخبره بوقوع أيّ شـــيء في القصر...

جهاد: **كثرة العمل من اســـتوجب عليّ إطالة المكوث في الخارج ولم أكن أنوي العودة اليوم غير أنّ طياري الخاص وصلته أخبار بمرض أمّه المفاجئ فأراد العودة على عجل بعد أن اســـتأذن منّي ... وقد استأثرت العودة معه حتّى أنّ نور لا تدري بعودتي اليوم ...على كلّ لما هي ليست هنا للعشاء معنا؟ ...أهي متعبة؟**

يرى جهاد تغير وجه خاله من بعد ســـماعه لاســـمها على غير العادة.

جهاد: **أهي مريضــة؟ ولكنّني تحدّثت معها صـباحا ولم تحدّثني بالأمر.**

الجدة: **ليتها كانت مريضة أو حتّى مي...**

لا تكمل وتصمت.

أمال: **أختي أصبحت تمكث في الخارج كثيرا حتّى أنّها أصبحت لا تدخل قبل منتصف اللّيل.**

حسناء: **أمال كلي وأنت صامتة...**

الجدة: **لماذا تصـــرخين هكذا على حفيدتي؟ كان الأولى أن تأدّب الأخرى بدل الصّراخ على أمال.**

حسناء: **أمال تحتاج أيضا التّأديب قبل فوات...**

تصمت ولا تكمل.

يصمت الكل للتركيز على التفكير أو الأكل بدل التّركيز على سرد أفعال نور التّي لم تعد تطاق...

يكملون عشاءهم دون النّطق بكلمة أخرى يصعد كل واحد بعد ذلك إلى غرفته عدى جهاد يجلس على أريكة في الصّـــالون الكبير المفتوح على الباب مقابلا لباب الدّخول في انتظار نور.

كان يتّصـــل بها في اليوم على الأقل ثلاث مرات مع هذا هي لم تحدّثه بما يحدث لها وخاصـــة فيما يتعلّق بتأخّرها ليلا وعلى قضـــائها لوقتها خارجا بدل قضائها له مع العائلة كعادتها.

يشعل التلفاز الضّخم ويستلقي على الأريكة تدقّ ساعة الواحدة بعد منتصف الليل على السّاعة الحائطية.

يتذكّر أنّه اشترى هذه السّاعة بطلب من نور لقد عرضت في مزاد عالمي منذ عامين أعجبت بها نور ولهذا اشـتراها بمبلغ يمكن أن يشـتري عمارة بخمســـة طوابق، على كل حال هي من الذّهب والماس والأمر

معقول هو رجل أعمال محترف ويحسب لكل شيء حسابا إلّا حين يتعلّق الأمر بطلباتها فهو لا يفكّر إلّا في إرضائها.

يرى الباب يفتح من بعد ذلك يراه يغلق من بعد أن دخلت.

تتقدّم بسرعة لأجل الصّعود إلى غرفتها ولكنّها تفقه أنّ التّلفاز مشتعل مع أنّه كان على الصامت، وجهاد من كان يفعل هذا فهو يحب تشغيل التّلفاز على وضعه على الصّامت حين يكون غاضبا للتركيز على أفكاره.

تتجمّد على بعد متر منه وتقف كتمثال.

دون أن يقف: **ألن ترحبي بي؟**

لا تجيب فقط تحسّ بقلبها يدقّ ويدقّ. إنّه هنا هي لم تكن تعرف بالأمر.

بهدوئه المعتاد: **تعرفين أنّي قبلت بعملك مع نوال منبل على شرط أن لا تنجرّي خلف أفكارها الشّاذة حول المفهوم الخاص بحريّة المرأة والذي يعني بالنّسبة لها التّدخين الشّرب العصيان والتّصرف بلا وعي ولا منطق. حسن ولكنّي أرى انّي كنت واثقا بك أكثر من المطلوب أو بالأحرى أكثر ممّا تستحقّين.**

دائما لا تتحرّك ولا تقول أيّ شيء يقف ويقترب منها، لكن حبه لها يغلب عليه فيقرب شفتيه من شفتيها لتقبيلها كالمعتاد... ولكن رائحة

الدّخان المنبعثة منها كانت أقوى من أن يغطيّها عطرها الباهظ الثّمن الذي اعتاد شراءه لها حسب ذوقه.

يدفعها بعنف وهو يصـــرخ: **هل تدخنّين؟ يا رب ماذا حدث لعقلك؟ أنا لم أغب عن المنزل ســـوى عاما واحدا. في عام واحد تحوّلت كل هذا التحوّل...**

يأخذها من يدها ويدفعها فوق الأريكة لا تشـــعر بنفســـها إلّا وهي مســـتلقية على الأريكة ويدي جهاد تكتمان على رقبتها حتّى لا تكاد تقدر على التنفس، حتّى وهي في هذه الوضـــعية هي غير قادرة حتّى على أن تواجهه لتنقذ حياتها منه.

أمام جهاد هي لا تواجه ولا تتحدّى ولا تقاوم هي فقط تطيع هذه هي طريقتها في الحب يا ل غرابة حبها.

يشـــد من قبضـــته فتحسّ فعليا بالاختناق فتبدأ الدّموع من عينيها تتدفق ســـاخنة، ولصـــعوبة ما كانت تتعرّض له على يديه ما كان لها إلّا أن وضـــعت يديها على اليدين اللتين تخنقانها دون أن تقول أيّ شـــيء. بدأت تحدّق إليه وعينيها تجودان بالعبرات السّـــاخنة ليرحمها من عقابه الشّديد.

يفهم أنّها تعان وغير قادرة على التنفّس فيبتعد عنها ويقف.

تضـــلّ مســـتلقية صـــامتة كان عليه أن يســـمح لها بالمغادرة كي تسترجع قوّتها وتقف وتذهب إلى غرفتها.

جهاد دون أن يحدّق إليها: **بإمكانك الذّهاب إلى جناحك...**

وهي تتوجه إلى الدّرج لتصعد إلى غرفتها تسمعه يحدّثها فتتوقّف لتصغي له: **هذه آخر مرّة تدخلين فيها بعد الثّامنة ليلا. أ تفهمين؟ ...ومن الآن وصاعدا أنت لن تدخنّي مهما يحدث.**

نور وهي مرعبة ومصدومة كليّا من مفاجئة اللّقاء وما حدث بينهما بعد اللّقاء: **حسنا.**

صباحا تتذكّر أنّ اليوم عطلة أسبوعية فتقرّر عدم النّزول للجلوس مع العائلة، لكنّها تتردّد حين تتذكّر أنّ جهاد في القصر وهو غاضب منها.

تغيّر ملابسها على عجل، من بعد ذلك تحدّق في المرآة لتتأمّل رقبتها الطّويلة البيضاء التّي ارتسمت فيها آثار الخنق أو بالأحرى يدي جهاد.

تنزل وتجلس مع الكل تحدّق إليه فتراه غير آبه بها على غير العادة، ومركّز على الجريدة التّي كان يقرأها وهو يتناول الإفطار.

المحامي فؤاد: **جهاد أخبرتني أنّك سترسل لي محاميين للعمل في مكتبي لحمل العبء عنّي؛ تعرف تجاوز عمري السّتين وأحب أن أتقاعد لأفرغ نفسي لعائلتي، لكنّي في نفس الوقت لا أريد إغلاق المكتب الذي تعبت من أجل رفع اسمه طوال أعوام.**

جهاد: **حسنا خال سأطلب من محاميين من المجموعة التّابعة لشركاتي التّعاون معك لحمل العبء عنك... أو بالأحرى سأطلب من وائل صديقي حمل العبء عنك هو سيعود من الخارج بعد غد، وكونه محامي بارع فأنا متأكّد من مقدرته على تحقيق الأهداف التّي رسمتها من أعوام بخصوص استمرارية نجاح مكتبك... هو في الأصل يعمل في أحد شركاتي في الجنوب وكونه يريد العودة والتفرّغ لمهنة المحاماة... فالأمر حتما سيعجبه وسأطلب منه أيضا أن يطلب من خطيبته العمل في المكتب هي أيضا محامية على ما أعتقد...**

المحامي فؤاد: **شكرا لك ابن أختي.**

أمال وهي تحدّق إلى رقبة نور التّي أثارت فضولها منذ جلوسها تقريبا: **أختي ما بها رقبتك هي محمرّة وهناك يد مرسومة على رقبتك؟**

نور: **و...و...وقعت ...أقصد...**

الجدة بنوع من الغضب الذي تراكم من عام بسبب تصرّفات نور ورفضها لحمل عبء المكتب عن ابنها فؤاد: **تقصد تستحقّ ونالت ما تستحقّه.**

كانت الجدة تحب كثيرا نور ولكن من حوالي عام تغيّر الأمر كليّا.

الجدة بنوع من الغضب دوما: **بعض النّاس المعروف والحب الذي نقدّمه لهم يفسدهم بدل أن يصلحهم. صدق من قال أكرم الكريم ملكته وأكرم اللّئيم تمرّد.**

تحس حســناء بالحزن على ابنتها ولكنّها تتجنب الدفاع عنها على غير العادة لأنّها لا تستطيع الدّفاع عن نور التّي تحوّلت 180 درجة في زمن قياســي... لأنّه بغض النّظر على أن ما قالته الجدّة قاســي إلّا أنّها محقّة... نور في هذا العام المنصـــرم كانت تدخّن في المنزل بدون أن تعير اهتماما لأيّ أحد حتّى لأختها الصّـــغيرة التّي قامت بتقليدها لعدّة مرّات واشـترت السّـجائر وسـعت لتدخينها كيف تدافع عنها ... فغضـب الجدّة مفهوم ومنطقي. وزد على ذلك هي كانت لا تدخل إلّا بعد منتصف اللّيل لأنّها كانت تقضــي اللّيل في المطاعم والنّوادي اللّيلية إرضـاء لنوال منبل المعروفة بحب هذه الأماكن الملعونة...تتســاءل حســناء إن كان جهاد على علم بكل شـيء فعلته نور خلال فترة غيابه ولكنّها فجأة تتذكّر أنّها سـمعته صـباحا حين نزولها إلى الصّـالون في المكتب يتحدّث مع الخدم وحتما هم ســردوا عليه كل شـــيء بالتفصـــيل الممل فلا أحد في المنزل غيرهم قادر على ذلك...فمهما يكن نور غالية على قلبهم ولا أحد منهم قادر على افساد العلاقة بينها وبين جهاد.

منيرة لتخفّف من شـدّة التوتر على الطاولة: **جهاد اتصل بي جدّك وأخبرني أنّه عليك الذّهاب إليه في أقرب وقت.**

جهاد وهو دوما يحدّق إلى الجريدة: **اتصـلت به صـباحا وأخبرته بعودتي وأنّي سأزوره في الكفر اليوم أو غدا...**

جهاد معتاد على الذهاب إلى كفر العتايده لزيارة جدّه منذ الصّـغر ولكنّه أيضـــا معتاد أن يمنح نور يومين من وقته بعد كل عودة له من

السّفر ولكنّه هذه المرّة غاضب منها ولا يستطيع حتّى النّظر إليها وحتما لن يمنحها من وقته الثّمين.

يحسّ جهاد بحكّة في عنقه فيبدأ بالسّعال بعفوية تقول نور: **جهاد هل أنت بخير؟ ...**

يحدّق إليها أخيرا كونه مقابل لها ويقول بغضب: **وهل أنت حقّا مهتمة بجهاد وبما يشعر به جهاد؟**

نور: **أنا...أ... أنا آسفة...**

يصرخ في وجهها وهو يقول: **على ماذا تتأسّفين على دخولك بعد منتصف اللّيل أم على...**

وقبل أن يكمل يتذكّر أنّ أمال هنا فيقول بابتسامة مصطنعة: **أمال هل بإمكانك تركنا لوحدنا فنحن لدينا موضوع خاص بالكبار ونود مناقشته...**

تغادر أمال لأنّها تطيع جهاد جدا ولا تجادل أبدا حين يكون هو من يطلب منها الأمر.

يصرخ مرّة أخرى في وجهها وهو يقول: **على ماذا تتأسّفين نور على دخولك المستمرّ لعام كامل بعد منتصف اللّيل؟ أم على تدخينك في كل مكان بدون احترام؟ أم على عدم مراعاتك لمشاعر الغير؟ ...أم على أكاذيبك؟ أنت لم تخبريني يوما بحقيقة ما كنت تفعلينه في غيابي...**

لا تجيب

جهاد: **أنت كنت تدخنين أمام خالي؟ ...هو من ربّاك، هو لم يخطئ يوما في حقّك... ماذا عن أختك الصّغيرة؟ ألا تعرفين أنّها تقلّدك دوما في كل ما تقومين به تقريبا، ولا بدّ من أن تكوني لها أحسن قدوة. ماذا عن أمّك التّي تخلّت عن كل شيء من أجلك؟ أ هذا هو جزاءها؟ وعن جدّتي التّي أحبتك دوما مثلي ومثل أمال نحن عائلتك ولا بد لك من احترامنا ...أنا لن أتحمّل تصرّفاتك ... أ تعتقدين أنّك على قدر المسؤولية لتربية طفلنا في المستقبل؟ ... أشك في قدرتك على تربية طفل؛ لأنّك تحتاجين لتربية...**

وقبل أن يكمل تقف لتغادر لأنّها أحسّت بالإهانة وبغضب عارم من كلامه.

لم تستوعب نور أنّه كان غاضبا جدا وكان فقط يهدأ من روعه ليخفي شدّة غضبه عن العائلة، هي تعرف مثل الجميع أنّ جهاد هادئ جدا ولكنّها لم تكن تتصوّر أنّه حين يكون الأمر متعلّقا بها فهو سيفقد كل أعصابه... هي لم يسبق لها أن تلاعبت بأعصابه أو أوامره إلى هذا الحد، ولهذا لم تكن تعرف بالأمر ولكنّها اليوم ستتناول وبال تحدّيها له...

تحسّ بيده تسحبها من شعرها الحريري الطّويل لتعيدها إلى الخلف، فتتأوّه وتستغيث بأمّها والعم فؤاد، ولكنّها تفهم بسرعة أنّه لا جدوى من الاستغاثة بهما؛ لأنّ جهاد سبقها وقام بتهديدهما بنظراته لكيلا

يقتربا، فتنادي على أمّه قائلة وهي تبكي من الألم والخوف: **ماما منيرة أرجوك ساعديني أحس أنّ شعري سيقتلع.**

وقبل أن يقول أيّ أحد منهم كلمة يقول هو بغضب شديد: **هي زوجتي ولا أريد لأحد منكم أن يتدخّل بيننا غادروا الصّالون فورا.**

يخرج الكل وتجلس هي على أرضية الصّالون حين تتذكّر أنّها حقا زوجته فقد قامت العائلة بتزويجهم شرعيا ومدنيا فقط منذ عام تقريبا ليقوم هو بنفسه بتولّي الأمور الخاصة بالإرث الذي منحته أيّاها أمّها في كفر العتايده ما يجنبها الذّهاب إلى ذلك الكفر الذي تكرهه كثيرا ولا تتمنى زيارته حتّى في أحلامها.

يبتعد عنها ويترك شعرها بسلام فتتنهد، ولكنّها تصعق ممّا سيقوله: **ستأتين معي إلى الكفر استعدي سنذهب مساءا.**

نور وهي تبكي: **اقتلني إن أردت ولكنّي لن أذهب معك هناك.**

جهاد وهو دائما غاضب: **أعتقد أنّك لا تستوعبين خطورة أفعالك التّي قمت باقترافها في هذا العام المنصرم؟ ...على كل أنت منذ عام غدوت زوجتي ومن حقّي المطالبة بك وأخذك إلى حيث أريد.**

نور: **إلى حيث تريد إلّا كفر المعتدين سأموت؛ جهاد إن فعلت بي هذا... أنت تعلم كرهي لهم...**

جهاد وهو دائما غاضب: **وأنت تعلمين كرهي للتصرّفات غير المحترمة، فلماذا طاوعك قلبك وعقلك على فعل كل ذلك؟ ...**

التّعب من التفكير أصعب من التّعب من العمل.

الفصل الثالث عشر:

الاستسلام في الحب في كثيرا من الاحيان يسمى شجاعة

الاستسلام في الحب في كثيرا من الاحيان يسمى شجاعة

تصعد نور الى غرفتها وهي تبكي.

ترمي بجســـدها المنهك على الســـرير وتبك بحرقة بعمق بألم بصـــمت... فالبكاء احيانا او في كثير من الأحيان يخفف من الألم أو الحزن الذي يتواجد في قلوبنا.

بعد زمن ليس بالطويل تسمع دقا على الباب ولكنّها لا تأبه بالأمر فتعبها أكبر من أن تقول كلمة...أدخل أو ارحل.

لا يتوقف الطّرق وبعد زمن من الطّرق الذي لم يتلقى أيّ جواب يقرّر الطارق اتخاذ القرار بنفســه... قرار فتح الباب دون الحصــول على الاذن بفتحه.

تطلّ برأسها الجميل الذي يشبه كثيرا أمّها حسناء وتقول من خلف الباب بصوت لطيف: **أختي هل أنت بخير؟**

بعد تردّد تكمل وتقول: **أختي أخي جهاد من أرســلني وطلب منّي أن أستبين ماذا تفعلين.**

تسحب نور الغطاء وتغطي كل رأسها وجسدها ومن تحت الغطاء تقول: **أخبريه أنّي لا أريده ...أخبريه ان يتركني وشأني...**

ولكن الّـدموع تغلـب عليهـا وهي تبكي تقول: **أخبريــه أنّ كتفي يؤلمني وأحسّ أنّي سأموت وأنّ كلّ جسدي يؤلمني ...الآن أخرجي من هنا فورا لأنّي أريد البقاء لوحدي...انتظري...**

أمال: **ماذا هناك نور ...هل تريدين شيئا.**

نور وهي تبكي: **اطلبي من أمّي أن تأتي.**

أمال: **حسنا أختي.**

بعد زمن ليس بالطّويل ترى نور أمّها تدخل ومن ثّم تجلس على السّرير قربها وهي تقول: **ماذا هناك ابنتي؟**

تضـــع نور رأســـها على رجلي أمّها وهي تبكي تقول: **كاد يقتلني أمّي انا خائفة جدا منه، إنّه حقا عدواني لقد خدعني بكلامه المعســول طيلة هذه السّنين.**

حسناء وهي تتنهّد: **سأطلب من خاله أن يتكلّم معه.**

بتســـرّع تقول نور: **لا أريد أن يكلّمه إنّه متوحّش لقد كاد يأكلني ...أ... أقصد ألمني... ألمني**

حسناء وكأنّها لم تفهم كلمات ابنتها أو لم تسمعها تقول: **سأطلب من خاله أن يكلّمه حتّى لا يتمادى في المرّة القادمة...**

نور وهي مفزوعة: **وهل سيكون هناك مرّة قادمة؟**

حسناء: **هو زوجك مدنيا وشرعيا ونحن من استأثرنا وطلبنا منه أن يمنحك بعض الوقت إلى حين تخرّجك ولقد تخرّجت من عام ومن حقّه أن يطالب بك لأنّك وكما قلت زوجته...**

نور: **لا أريده أمّي ...لم أعد أريده إنّه متوحّش...أمّي أطلبي من عمّي فؤاد أن يطلّقني منه لا أريد أن أبقى معه ولو ليوم آخر.**

حسناء: **هل جننت نور... على كلّ إن كنت تريدين تطليقه فأنا لا مانع بشرط أن تطلبي الطّلاق منه بنفسك.**

نور: **هل تريدين أن يقتلني... ألا تتذكّرين ماذا فعله بي حين أخبرته منذ ستة أعوام أنّني معجبة بعماد ابن الموظّف الذي كان يعمل عند جدّه لأنّه كان يرسم جيدا... لا أعرف كيف استطاع فعل ذلك ولكنّه عزل الوالد ونفى عماد. أمّا أنا فحبست في المنزل طيلة العطلة الصّيفية مع أنّي كنت مجرّد تلميذة في الثّانوية ...آه وبالطّبع طرد عائلة عماد من هذا الحي بعد أن قام بشراء قصرهم.**

حسناء: **ولما عليك تذكّر هذا الشّاب الآن؟**

نور: **يا رب لماذا يحدث لي هذا؟**

حسناء: **نور شت الجدة هنا سمعت باب غرفتها يفتح لا أريد أن تقلبها علينا عزاء حبيبتي أصمتي سنكمل حديثنا غدا.**

تستلقي حسناء قرب ابنتها الغالية والتّي من أجلها تخلّت عن كل شيء واستبدلت حياتها الماضية بهذه الحياة الأخرى المبنية على قواعد

أخرى وهي تملس على رأسـها تقول: **نامي قليلا حبيبتي غدا سـنجد حلّا في كل الأحوال هو سيهدأ وحتما سيتوقف عن تعنيفك.**

بعد نوم نور تخرج حسناء وتغلق الباب من خلفها وهي تتنهّد.

الأمر حقا متعب تدخل حســناء إلى غرفتها تســتلقي قرب زوجها وهي منهكة.

فؤاد: **كيف حال نور؟**

حســناء: **لم تســتوعب ما وقع بينها وبين جهاد هي زوجته منذ عام صــحيح ولكنّه لم يحدث أيّ شــيء بينهما فيوم قرانهما أصــيبت الجدّة بوعكة ثّم بعد ذلك ســافر جهاد واســتأثرت نور البقاء هنا... صــحيح إنّه لم يقم لهما عرس لأنّ جدّ جهاد يريد العرس في الكفر ونور غير راغبـة بـالـذهـاب إلى هنـاك ... وعلى اعتقـاد نور جهـاد ســيصــبر عليهـا ولن يجعـل منهـا زوجتـه فعليـا إلّا بعـد العرس الكبير...أحسب أنّ جهاد قرّر وانتهى الأمر.**

تنزل نور إلى الصّالون على السّاعة العاشرة فتجد الكلّ خرجوا من غير جهاد.

تجده جالســا على الأريكة في الصّــالون المفتوح على الباب يدرس ملفات كثيرة موضــوعة على الطّاولة الزّجاجية أمامه في كل الأحوال هو دائم العمل وربّما لهذا صنّف في خانة الرّجال الأهم في المجتمع.

ولأنّها اليوم خائفة منه لما رأته منه... تجلس بعيدا عنه بأمتار على أريكة أخرى وتنادي على الخادمة مروان.

نور بصـــوت عـال على غير العـادة لاســـتعجـال الخـادمـة: **مروان...مروان هل لدينا عصـــير يمكنه محو ذكرياتنا وشـــفاءنا من ألمنا...أقصد أريد عصير ليمون...**

يتظاهر بعدم سماعها كونه مشغول جدا.

تشعل التلفاز من بعد حصولها على طلبها وتركّز عليه.

جهاد: **ما رأيك أن نســافر مســاءا في شــهر عســل؟ ... اليوم سأنهي كل هذه الملفّات والتّي ما هي إلى برامج تنفيذية لرؤساء بعض شركاتي... على كل هو ليس شهرا بل أسبوعا...**

تحدّق إليه وهي تقول: **لا أريد.**

جهاد: **لا تكوني عنيدة...**

نور: **ألم توصل لك أمال أمس ما قلته لها؟**

يقف ويقترب منها وهو يضـحك: **أريد أن أسـمعه منك من شـفتيك أنت لأحصل على وقعه الحقيقي...**

وقبل أن يصـــل إليها تقف وتبتعد عنه وهي تقول: **إيّاك والاقتراب منّي مرّة أخرى فأنت متوحش.**

جهاد وهو يضحك: **وهل تعتبرين ما وقع بيننا أمس وحشية منيّ؟**

نور: **أجل هو وحشية منك.**

جهاد: **أمّا أنا فاعتبره حقا من حقوقي الزّوجية لا أكثر ولا أقل.**

نور: **لا يهمّني الأمر المهم ألّا تقترب منّي من الآن وصاعدا.**

جهاد وهو يبتسم بسخرية من قولها: **ألّا أقترب منك حياتي سيكون من الصّعب تنفيذ ما تطلبينه لأنّك زوجتي التّي أحبها كثيرا مع جنونها واهتمامها الكبير بالحريّة وتتبّع كل من يطالب بها سواء فهم معنى الحرية أو لم يفهمه كما ينبغي...على كل فلنغيّر الموضوع آه لقد قمت بشراء هدية لك في رحلتي الأخيرة ونسيت منحها لك هي في غرفتي...**

نور: **أحضرها لي ستجدني هاهنا في انتظارك.**

جهاد: **ولماذا لا تأتين معي لأمنحها لك؟**

نور: **لا أريدها ولا أريدك أنت أيضا.**

جهاد: **أنت تريدين فقط حريّتك التّي أصبحت تندّدين بها بغباء وكالببغاء منذ أن أصبحت نوال منبل قدوتك. يا للحريّة التّي تطالبين بها، الحرية في التدخين وفي الدّخول إلى المنزل بعد منتصف اللّيل... لكنّك كنت تعرفين أنّي لن أقبل بالأمر وسأعارضه لهذا لم تعرضيه عليّ حين كنت أكلّمك يوميا من الخارج والآن تريدين التحرّر حتّى من زوجك ومن حقوقه عليك.**

نور: **لقد خدعتني...**

جهاد وهو يضـــحك بســـخرية: **خدعتك ومن منّا خدع الآخر هل أخفيت عنك شيئا يوما؟**

نور لتغير الموضوع: **في كل الأحوال أنا لن أسافر معك في شهر أو أسبوع عسل.**

جهاد وهو يعاود الجلوس: **آه حقا شكرا لك حبيبتي في كلّ الأحوال لدي الكثير من العمل في شـركتي الرئيسـية هنا وقد اقترحت الأمر من أجلك كوني لم أقم لك حفل زفاف لتصـرفاتك الغبية... أردت تعويضـك بأسبوع من السّفر وما دمت لا تريدين وتفضّلين أن نقضي الأسبوع في جناحي...فلا مانع لدي...**

نور: **أنا لن أقضي معك أيّ وقت.**

ليزال جهاد دوما غاضـبا منها لهذا يجيبها بغضـب: **أنا لم أسـألك إن كنت تريدين لأنّك ورغما عنك ســـتنتقلين إلى جناحي في الطّابق الثّاني ولن يكون هناك شـهر عسـل في الخارج وسـتفعلين كلّ ما أريده منك أو أطلبه منك راغبة أو مرغمة...**

تتمنّى أن تعترض وتنتفض وتواجهـه ولكنّهـا لا تجرؤ وكيف لا وهي التّي كانت ترى حجم غضبه منها والذي لا يريد أن ينطفئ.

تعاود الجلوس على الأريكة فما عساها فعله...

ينادي جهاد مروان... تأتي مروان على عجل وهي تقول: **ســيدي ناديتني؟**

جهاد: **أطلبي من الخدم نقل أشـــياء نور إلى غرفتي وإعادة توضبيها...**

نور: **مروان لا...**

تتوقّف عن الكلام حين ترى نظراته المهدّدة لها.

مضـى على انتقالها إلى غرفة أو بالأحرى إلى جناح جهاد نصـف عام كامل من حسن حظّها أنّه شـخص مشـغول جدا ولا يتتبع المشـاهير أو الأحداث التّي لا تتعلّق بالإعمال والمشاريع الكبرى.

هو دائم العمل والسفر ما يجعلها تتصرّف كما تريد دون أن يصله أيّ خبر.

تدخل نور إلى مكتب عملها وتجد نوال منبل في انتظارها وما أن تجلس على كرسـي مكتبها حتّى تقول لها: **أتعرفين من سـيكون محامي الدّفاع في القضية التّي رفعتها موكلتنا على زوجها؟**

نور: **لا يهمني القضية سأربحها مهما يكن...**

نوال منبل: **هو وائل ســـندر المحامي الذي أخذ مكان فؤاد حقي سمعت أنّه لم يخصر أيّ قضية مثلك.**

نور: **هو صديق جهاد...مع هذا أنا لم يسبق لي وأن رأيته.**

نوال منبـل: **زوجـك...تعلمين أنّـك الوحيـدة المتزوجـة في هـذا المكتب، فمعظم النّسـاء العاملات معنا هنا تعرّضـن للخيانة والقهر من**

رجل ما في حياتهن... فإمّا أن تكون مطلّقة أو لم تتزوّج من أصله أو هربت من زوجها مثلي.

نور: **أنا متفهّمة لوضعهن؛ الزّواج ليس أمرا هينا هو أمر يتطلّب صبرا لا حدود له وغضّ الطّرف عن الكثير من الأمور وإن كنّا نستنكرها.**

نوال وهي تجلس على طرف المكتب: **أنا في الإصغاء.**

نور: **هو عنيد لا يحب أن يسمع كلمة"لا" من فمي هو قاسي جدا حين يتعلّق الأمر بي مع، إنّه لطيف مع كل العائلة. تصوّري لقد أهدى أختي في عيد ميلادها منذ أسبوع قلادة تقدّر بمبلغ خيالي وحين طلبت منه أنا سيارة لا يتعدّى سعرها ربع سعر القلادة التّي أهداها لأختي قال لي اخترت العمل بدل الاعتناء بي زوجك لذا اشتري السيارة بنفسك أو بالأحرى بعملك...**

تضحك منال: **سمعت أنّه من أذكى رجال الأعمال.**

نور: **ربّما، والأمر لا يهمّني تعرفين هو مصرّ على عدم شراء أيّ شيء لي؛ لأنّي أعمل وأخبرني أنّه إن كنت أريد الحصول على أي شيء من أمواله فعلي أن أتوقّف عن العمل وأنجب له طفلا.**

نوال وهي مفزوعة: **نور أيّاك أن تقول لي أنّك لا تأخذين حبوب منع الحمل؟**

نور وهي مندهشة: **ولكنّي لم أتناولها يوما خوفا من أن يكتشف جهاد الأمر هو حتما سيقتلني لو فعلت هذا وأمّي أيضا لن توافق على الأمر.**

نوال وهي غاضبة: **أتمنى أن لا تحملي طفلا الآن لأن العمل كثير وأنا اعتمد عليك كثيرا.**

تخرج نوال وهي منزعجة فعبقرية نور تستحق اهتمامها ولكن مجيء طفل لها سيجعل زوجها حتما يمنعها من العمل على الأقل لأشهر.

تدخل نور الجناح فتراه جالسا على الأريكة يعمل، ترمي بنفسها على السّرير دون قول أيّ كلمة من التّعب.

ما أن يراها حتّى يترك كل شيء ويقترب منها ويستلقي قربها ويبدأ في تقبيلها.

نور: **أرجوك أنا متعبة.**

جهاد وهو غاضب: **لا أريدك أن تعملي اهتمي بي وهذا يكف لتحصلي على كلّ ما تحلمين به.**

نور وهي تحاول الابتعاد عنه: **لماذا تفعل بي هذا يا جهاد أنت لم تتفهّم يوما كلمة أنا متعبة حين تكون من فمي أنا... أنت تتفهّم الكلّ إلّا نور.**

جهاد: **لأنّ نور عليها واجبات زوجية لا تحب أداءها وتتحجّج كثيرا بالتّعب.**

تصمت نور عند سماعها لجوابه هذا الذي لطالما سمعته منه حين قالت له أنّها متعبة وغير قادرة على تلبية ما يريد في كل الأحوال هي تعلم أنّه لا نفع من كلامها فجهاد حين يرغب بشيء ما عليها إلّا التنفيذ وإلّا تعرّضت لوبال غضبه.

اليوم يوم عطلة أسبوعية تتوجّه نور إلى الصّالون للإفطار مع العائلة تدخل من بعد ذلك تجلس دون قول كلمة واحدة.

يأكل الجميع بصمت إلى أن يقرّر فؤاد قتله.

فؤاد: **اليوم سيكون لدينا ضيفين على العشاء وائل وخطيبته هدى.**

جهاد: **لم أراه منذ أن أخذ هو وخطيبته عنك مسؤوليات المكتب... كان يعمل في إحدى شركاتي في الجنوب...**

فؤاد وهو يبتسم: **هو دائم التذمّر من الدخل البسيط الذي يتلقاه في المكتب مقارنة لراتب الذي كنت تمنحه له ... أنت تدلّل كثيرا عمالك.**

أصبحت نور تتقزّز كثيرا من زوجها حتّى أنّها لم تعد تتحمّل رؤيته أو سماعه.

لا تعرف ماذا يحدث معها ولكنّها لا تتمنّى شـــيئا أكثر من الانفصال عنه والابتعاد كليّا عنه.

نور: **صـــحيح عمّي هو يدلّل الكل إلّا الشّـــخص الذي من واجبه حقا تدليله.**

كان يتمنّى أن يقول لها ألا يكفيك كلّ ذلك الدّلال والحب الذي أغدقك به ولكنّه اكتفى بالتحديق إليها بغضب.

حسناء: **ما هذا الكلام نور؟**

نور: **هي الحقيقة أمّي.**

حســناء وهي تســعل وتحدّق إلى ابنتها بتجهّم: **هل أنت مريضــة حبيبتي ليس من عادتك التحدث هكذا؟**

نور: **لست مريضة ولكنّي متعبة... أنا متعبة من كل شيء...**

وقبل أن تكمل كلامها تســمع الجدّة تقول: **دوما أخبرني أهلي أنّ الإفراط في التدليل يفســد النّفوس وكثرة الاهتمام يفســد الطباع وكثرة العفو عن الأخطاء يدفع إلى الأخطاء وجهاد أخطأ حين غظّ الطّرف عن أفعالك الســيّئة التّي إقترفتيها حين غاب عن المنزل وما تعبك إلّا ردّة فعل منتظرة من امرأة أخطأت ولم تحاسب...**

وقبل أن تكمل تقول نور وهي ســاخرة: **نوال منبل تعتبر كلّ امرأة تحاول إيذاء امرأة مثلها شخصا لا يستحق أن يلقّب...**

يقاطعها جهاد بغضـــب لأنّه كان يعرف ما كانت تنوي قوله: **أصمتي لا أريد سماع صوتك أو اسم نوال منبل في منزلي.**

بعد صـــمت مطول تقول أمال: **أخي جهاد أتعرف من قام بالغناء في حفل عيد ميلاد صديقتي سبيل؟**

جهاد وهو يبتســـم من براءة ابنة خاله التّي لا تعي حجم التوتّر السّائد على الطّاولة بسبب نور وها هي تتحدّث عن موضوع آخر خاص بحفلة: **من؟**

أمال: **إنّه المغنّي علي حمود.**

نور بســـخرية صـــارخة: **أخوك جهاد لا يعرف إلّا في الحقوق والواجبات بالأخص المطالبة بحقوقه دون إعارة أهمية لشـــيء آخر... حتّى أنّي استغرب أنّه لا يعمل كمحامي.**

جهاد وهو يبتسـم ليخفي غضـبه: **مع أنّي لسـت محاميا إلّا أنّي أعرف واجباتي وحقوقي بعكس الذي درس القانون ولكنّه لا يطبّق منه شـيئا في حياته ويسـتعمله فقط لتخريب على الآخرين وتدمير العائلات وتطليق النّساء من أزواجهن...**

بغضـــب تقول نور: **هذا هو رأيك في عملي وفيما أقوم به لمساعدة النّساء المظلومات؟**

يبتسم بمكر ولا يجيبها لكي يغيظها.

الجدّة: **محقّ أنت جهاد؛ الكلّ يتحدّث عن الجمعية التّي تديرها منبل وعن تحريضـــها على الطّلاق وتحرّر المرأة من الأخلاق والقيّم وواجباتها اتجاه عائلتها.**

أمال: **أيّ أنّ المرأة يمكنها أن تدخّن وتفعل ما تريد...**

حسناء: **الحريّة ليست في التدخين والتخلّي عن الأخلاق بل بأداء الواجبات للحصول على حقوقنا.**

جهاد وهو يقصـــد بكلامه نور: **ولكن من النّاس من يعتقد أنّ الحرية تتمثّل في شـيء تافه مثل التدخين أو معارضـة الزّوج ومعاندته في كل شيء.**

تقف نور بغضب وهي تقول: **أعتذر لا أحس أنّي بخير.**

للحب قوانين كما للمجتمع قوانين.

الفصل الرابع عشر:
المصائب لا تأتي منفردة

المصائب لا تأت منفردة

يدخل وائل القصـر مع خطيبته وتقوم العائلة بالترحيب بهما بحفاوة كون وائل أحب صديق لجهاد.

يظلّ الكلّ في الصّـــالون الكبير وبعد ســـاعتين من تبادل أطراف الحديث في الصّـــالون الكبير المفتوح على باب الدّخول يتوجّه الكلّ إلى الصّالون المخصّص للأكل.

يسـتغرب الضّـيفين من عدم رؤية زوجة جهاد أهي متكبّرة إلى هذا الحد؟ أم أنّ تواجدهما هنا غير مهم بالنسـبة لها ولهذا لم تأتي حتّى الآن للترحيب بهما.

إكرام وهي مبتسـمة: **أليست نور في القصـر؟ أحب التعرّف عليها فنحن لم يسبق لنا أن تعرّفنا عليها، جهاد أخفاها عن الأعين كلّها.**

حســناء وهي تبتســم بانزعاج كونها لا تعلم ما أخر ابنتها ومنعها من النّزول للترحيب بالضّـــيفين إلى الآن: **إنّها متعبة قليلا ومرهقة نوعا ما ولكنها ستنزل بعد ثوان...**

بعد أن شـرع الكلّ في الأكل تدخل نور وتسـلّم على الكل وترحب بالضّيفين بعد جلوسها يبدأ وائل بالتحديق إليها باستغراب.

وائل: **لم أتصـــوّر أبدا أن تكوني زوجة جهاد أكبر رجال الأعمال في العالم وصديقي المفضّل؛ لم**

يتبادر الأمر أبدا إلى ذهني.

جهاد: **ولما هذا؟**

تتبادل النّظرات بين وائل وزوجته والأمر لم يخفى على جهاد.

وائل: **زوجتك أصبحت مشهورة للغاية في الآونة الأخيرة.**

جهاد: **لماذا وماذا صنعت لتصبح مشهورة للغاية؟**

لا يجيبه ويبقى صامتا أمام السّؤال متردّدا.

جهاد: **وائل ألم تسمع سؤالي؟**

وائل: **أرجوك أفضل عدم الخوض في هذا الموضوع وخاصة أمام العائلة كلّها.**

جهاد: **وائل لست من يقرّر.**

فهم جهاد أن زوجته التّي دلّلتها أمها كثيرا وخاله فؤاد ارتكبت مصيبة أخرى وأخفت الأمر عنه كيلا تتلقّى العقاب المناسب للفعل؛ فبعد مصيبة التدخين والسّهر في المطاعم حتّى منتصف اللّيل وأكثر ها هو ذا أمام أمر يفوق كل شـــيء فلولا ذلك لما تحدّث وائل بالأمر ولفضّـــل الكتمان؛ فوائل إنسـان خلوق جدّا لا يحب التدخّل فيما لا يخصّـه إلّا إذا كان الأمر خطيرا جدا.

يحدّق وائل إلى أمال وكأنّه يطلب من جهاد إخراجها من الصّالون كي يتمكّن من التحدّث بحرية مطلقة ودون الأخذ بالاعتبار أن طفلة صغيرة موجودة.

يفهم جهاد الأمر ولهذا يقول: **أمال أختي هل يمكنك تركنا لوحدنا فنحن سنتحدث بأمر خطير ولا نحب أن تنزعج به.**

تخرج أمال بسرعة وهي تقول: **حسنا أخي جهاد.**

لم تتصوّر نور ليوم أنّ وائل المحامي المعروف بخصومته لها والذي يعرف كل شيء عن عملها وعن نوعية القضايا التّي يقبل بها في مكتب نوال منبل هو وائل نفسه صديق جهاد المفضّل إلّا منذ زمن قصير.

لم تتمنى الالتقاء به في هذا الوقت الحرج ولكن لا مفرّ من الأمر تمنت لو لم تنزل لرؤيتهما ولكن جهاد لم يتوقّف عن إرسال رسائل هاتفية يطلب منها فيها النّزول لترحيب بضيوفه تبقى صامتة مذهولة ... فالمتهم عليه الصّمت وانتظار العقاب الذي سيحلّ عليه والذي سيقرّر عليه من طرف الآخرين.

بتردّد يقول وائل: **أنت صديقي منذ الصّغر وأعرف أنّك لست ممّن يتتبع أخبار المشاهير أو حياتهم ولهذا أنا متأكد أنّك لست على دراية بما يحدث من حولك فكل حياتك منصبة على العمل والمشاريع وربح الصّفقات ولهذا من واجبي اطلاعك على الأمر الذي فعلته زوجتك كلّه؛**

أقسم أنّي لا أريد أن أخرّب عليك ولكنّه واجبي... فصداقتنا تقتضي عليّ قول الحقيقة لك.

جهاد: **ممتاز... اختصر الشّرح وادخل في الموضوع.**

وائل: **قامت مغنية معروفة في الوسط الفني بخيانة زوجها والأمر كان مهولا كون الأمر تمّ تصويره واثباته والإعلان عنه والأدهى في الأمر أنّ المغنية لم تقم بإنكار الأمر بل قامت بالتّصريح عن الوقائع ومن أنّها حقيقية ومن دفعها إلى هذا الجرم الحب فهي تحب الرجل الذي أقامت معه العلاقة المشبوهة وهذا بالنّسبة لها مبرر كافي للفعل.**

الكل رفض الدّفاع عنها إلّا نوال منبل ...فنوال منبل تقبل كل قضية مسندة إليها حين يكون الأمر متعلّقا بحقوق امرأة ما ظالمة كانت أو مظلومة المهم أن يكون الخصم فيها رجلا.

في المحاكمة الأولى فشلت نوال منبل فشلا ذريعا في الحصول على عفو عنها لهذا وكما كتبت الجرائد طلبت المساعدة من تلميذتها المفضلة نور زوجتك.

زوجتك حين تكفّلت بالقضية لم تدافع عن المرأة بل استعملت أسلوبا آخر؛ أسلوب الهجوم، أثبتت أنّ الرّجل من خان أوّلا وشوّهت سمعته وقامت بجعل موكّلتها تؤكّد أنّها اعترفت بأنّها قامت بالفعل أمام تهديد زوجها الشّرير.

لقد ادخلت زوجتك الرّجل إلى السّجن فقط لأنّه رجل وذنبه الوحيد يتمثّل في أنّه خصم امرأة.

يحدّق جهاد إلى زوجته التّي لا تقول أيّ شيء بغضب.

يكمل وائل ويقول: **ربّما ستقول أنّ زوجتك لم تظلم الرجل ولكن الحقيقة تقول غير ذلك لأن عائلة المغنية تبرأت منها وأعلنت الأمر علنا وأكدت هذه العائلة في الجرائد من أنّها لن تسامح المغنية ابنتهم إلّا إن قامت بإخراج هذا الرجل المسكين من السّجن وهذا ما وقع فعلا.**

إكرام: **جهاد الأمر للأسف لم ينتهي هنا للاحتفال بالفوز بالقضية؛ قامت نوال منبل بعزيمة أعضاء مكتبها إلى ملهى ليلي سيّء السّمعة بسبب الخمور التّي تشرب هناك بكثرة، من حسن الحظ أنّ نور لم تكن معهنّ لأنّه تّم تصويرهن وهن يشربن الخمر ويدخن وتعرّضن لفضيحة كبيرة جدّا وهنا أيضا قامت زوجتك بالتدخّل والدّفاع عنهنّ ولكن بطريقتها المعتادة هي لم تنكر الأمر ولكنّها هاجمت من قام بتصويرهن ومن حاول تشويه سمعتهن.**

وائل: **قامت السيّدة نور بشرح الأمر من منظور آخر خاص لترفع من القضية إلى مستوى آخر إلى مستوى تظهر فيه أنّ المرأة ضحيّة في المجتمع ضحيّة التفكير والعادات؛ فقد ركّزت على أنّ نوال منبل حقا قامت بالشرب في ذلك المكان ولكنّه في هذه الحال لابد من الاعتراف أنّه لطالما قام رجال مهمين في المجتمع بالشرب والتدخين**

وارتياد ذلك المكان ولكن لا أحد قام بالهجوم عليهم وتصـــويرهم فلماذا نوال منبل ومجموعتها تمّ تصـــويرهن وتمّ نشـــر الأمر في الجرائد إلّا لأنّهن نساء...أظهرت زوجتك أنّ الأمر جو؛ فإن كان لا بد أن نحاسب على هذا الأمر فلا بد أن نكون عادلين؛ الخمر محرّمة ومضـرّة لصـحّة الرجل والمرأة والأمر سـيّان. فلماذا نريد أن نحاسـب المرأة دون الرجل؛ إن كان الأمر كذلك فالأمر ليس متعلّق إلّا بنفوســـنا المعلولة وليس بالدين أو القانون. وقد أكّدت زوجتك أنّها موافقة على عقاب نوال منبل بشرط معاقبة كل الرّجال الذين ارتادوا ذلك المكان وخاصة وأنّ الحصول على هوياتهم ليس بالأمر الصـــعب كون المكان يعجّ بكمرات المراقبة وبالطبع حين ســـمع من ارتاد المكان من الرّجال المهمّين بالأمر قاموا بتبرئة نوال منبل على طريقتهم وتم والاعتذار رســـميا منها وحتّى أنّهم جعلوا من قام بفضحها يؤكدون أنّ الصّور مغشوشة وليست صحيحة.

بعد نجاح زوجتك في هذه القضـــية قامت بارتياد ذلك الملهى متعمدة مع نوال منبل وقد تم تصويرهما هناك.

يأخذ وائل هاتفه ويري جهاد صـــورة زوجته مع نوال في ذلك الملهى.

وائل: **بإمكانك؟ أن تقرأ المقال أيضـــا الكثيرون يعتبرون زوجتك ممّن يحرّض المرأة على ارتكاب المجون.**

يركز جهاد على قراءة المقال بينما تبدأ نور في التفكير أنّ نهايتها قد اقتربت وأنّها حتما ســـتكون على يدي زوجها جهاد الذي كان يقرأ المقال بغضب.

جهاد: **لماذا يتحدّثون في هذا المقال عن مغنّي يســـمّى كريم سامدي.**

وائل وهو متردّد: **هي قضية أخرى.**

جهاد: **أهي متعلّقة بنور؟**

وائل: **للأسف أجل.**

جهاد: **أطلعني على الأمر.**

وائل: **مع ارتياد زوجتك لذلك المكان للمرّة الثّانية يظهر أنّ هذا المغني الذي وقع في غرام زوجتك معتقدا أنّها غير متزوّجة قد قصـــد المكان لدعمها في قضيتها وبالطّبع لطلب يدها.**

جهاد: **وبالطّبع هي فضيحة أخرى تمّ تداولها.**

وائل: **من حسـن الحظ أنّه لا أحد يعلم أنّها زوجة أكبر أحد رجال الأعمال في العالم وإلّا لكنّا إلى يومنا هذا نتمرّغ في مقالات وفضائح...**

تحسّ حسناء أنّها ستموت من الحزن ممّا كانت تسمعه على ابنتها وما ارتكبته من أخطاء ولكنّها مع هذا تشفق وتخاف عليها وممّا سيحدث لها على يدي جهاد.

يرى فؤاد زوجته قلقة فيقوم بتغيير الموضـــوع على عجل. يفهم جهاد أنّ زوجة خاله لن تتحمّل أكثر فيغيّر هو أيضا الموضوع وكأنّه لا شـــيء حدث ولكنّه لأوّل مرّة ومنذ زمن موت والده وعمّته يحسّ أنّه فقد الشّهية كليّا.

يضلّ الضّيفين مع العائلة إلى حين نهاية العشاء بعد هذا يستأذنان بالمغادرة.

تضلّ نور جالسة صامتة متحجّرة على كرسيها حتّى بعد مغادرة الكل.

ترى الخادمات ينظّفن الطاولة من الصّحون الأخيرة فتقف وتتوجّه إلى الصّالون وهي مدركة لما ينتظرها هناك.

تجد جهاد جالسا على الأريكة يتوسّطها كالملوك تصل عنده فتقف دون حراك في انتظار سماع الحكم الذي وصل إليه بعد التفكير.

جهاد: **هل تريدين أن أجلط بسببك؟**

تفهم نور أنّه يمهّد لنطق بحكمه الذي وصل إليه منذ برهة.

جهاد: **ما ذنب أمّك؟ لقد قامت بالهروب وترك كل شـــيء خلفها من أجلك.**

لم تحاول نور يوما مواجهة جهاد ولكنّها اليوم على غير العادة تجيب وتقول: **وماذا تركت خلفها؟ ذلك الكفر المقرف القرف؟ لماذا**

تحاول دائما اظهاري كناكرة للجميل في حقّ أمّي؟ أنا أحبّها جدا ودائما حاولت إطاعتها...

جهاد: **آه حقا وماذا تسمّين أفعالك هذه؟**

لا تجيب.

جهاد: **أنت ستستقيلين من العمل.**

نور: **مستحيل.**

جهاد: **لا خيار لديك.**

نور: **أفضل الموت على الاقدام على هذا الأمر.**

جهاد: **أيّ أنّك ترفضين؟**

نور: **أنا ...أنا حقا...**

وقبل أن تكمل ترى جهاد واقفا يقترب منها تتراجع حتّى يلامس ظهرها الجدار يقترب منها ويوجه يديه إلى عنقها ويخنقها.

ولكنّها هذه المرّة على غير العادة تقوم بالدّفاع عن نفســـها بدفعه بقوّة والهروب منه وصعود الدرج بسرعة والتوجه إلى الطّابق الأول حيث غرفتها تدخل وتغلق الباب على نفسها بالمفتاح.

يلحق بها جهاد يصـــل إلى غرفتها ويدقّ على الباب بهدوء وهو يقول: **نور افتحي الباب نحن لم ننهي كلامنا.**

تجلس نور وتستند الباب لا تفهم لما قامت بدفع جهاد هكذا هو لن يســـامحها حتما لأنّها رفعت يديها عليه. لم تدرك نور أنّ غريزة الأمومة التّي ولدت عندها دون أن تدري من يدفعها لدفاع عن نفســـها من أجل من أصبح يسكن أحشاءها منذ شهر من الآن.

تعرف نور أنّ موقفها ضـــعيف ومن أنّ جهاد لن يســـمح لها من الآن وصاعدا الخروج من المنزل تتصّل بنوال منبل وهي تبكي تروي لها كل ما وقع فتنصحها الأخيرة بالهروب من المنزل والتحرّر من جهاد لأنّه الحل الوحيد لما هي فيه.

عند الثالثة ليلا وبعد نوم الجميع تتســـلّل نور من غرفتها وتهرب من القصـر تصـل إلى البوابة فتتسـلّل منها تخرج إلى الشّـارع فتجد نوال منبل تنتظرها داخل سيارتها تركب معها وترحل دون إعلام أحد.

حبل الكذب قصير.

الفصل الخامس عشر: لا تجعل من قلبك نقطة ضعفك

لا تجعل من قلبك نقطة ضعفك

تجد نور نفسها في منزل نوال منبل في شقّة بسيطة وهي المعتادة منذ زمن على العيش في قصـــر مع مئات من الخدم غايتهم الوحيدة إرضـــاءها كونها حبيبة مالك كل شـــيء ومالك الأموال التّي تأتي منها رواتبهم الضّخمة.

تتساءل عن حال أمّها وإن كانت على علم بهروبها.

تعلم أنّها نقطة ضـعف قلب أمّها وتتمنى ألّا يتوّجع قلب أمّها كثيرا بسببها.

السّـاعة تشـير إلى السّـابعة تماما صـباحا تشـمّ نور رائحة الحلوى التّي تطهى في الخارج تجلس على الأريكة التّي كانت عليها مســـتلقية وتقول: **نوال من أين هذه الرائحة؟**

نوال من غرفتها المجاورة لصـــالون حيث نور: **من فظلك دعينا ننام قليلا نحن لم ننم إلاّ عند الرّابعة صباحا.**

تلتفّ نوال في غطائها وتعاود النّوم.

تقف نور وتتوجّه للبحث عن الحمّام تسرع بالاستحمام تأخذ ملابس رياضـية فخمة من حقيبتها تلبسـها تأخذ المال من حقيبتها اليدوية وتتوجّه إلى الخارج.

تنزل الدرج وتخرج من العمارة تنظر من حولها فترى حيّا شـــعبيا حديثا مليئا بالحوانيت تضـــحك من نفســـها حين ترى أنّ حانوت الحلوى التّي كانت تبحث عنه كان تحت الشّـــقة التّي كانت فيها لتوّها تســـرع بالدّخول تشـتري الكعك الذي كانت تشمّ رائحته من الصّـباح تشـتري معه من نفس الحانوت كأسا من خليط هو عبارة عن مزيج من الحليب والقهوة وتجلس على كرســـي حجري تحت شـــجرة ليس بعيدا عن الحانوت وتبدأ في الأكل بشـــراهة دون إدراك منها أنّ طفليها من كانا يريدان هذا الكعك بالتحديد.

في هذا الوقت ينزل جهاد إلى الصّـالون لأخذ فطور الصّـباح يجد الكلّ هنا من غير زوجته.

جهاد: **ألن تفطر معنا الهانم؟**

أمال بعفوية: **أختي ليست في غرفتها.**

جهاد: **وأين هي إذا؟**

حســناء: **ابنتي اتصــلي بأختك...أ يعقل أنّها خرجت للجري قليلا في الحديقة.**

تأخذ أمال هاتفها وتتصل بأختها دون أيّ تردد.

تجيب نور وتطلب منها أن تضع الهاتف على المسموع لكي تسمع أمّها ما تريد قوله.

أمال: **أختي كلنّا نسمعك لأنّنا حول طاولة الإفطار.**

نور: **حسنا أختي... أمي أنا آسفة ولكنّني قرّرت مغادرة المنزل؛ لم أعد أستطيع البقاء هناك أنا آسفة ماما.**

حسناء: **ويلي ويلي ...هل جننت أم ماذا؟ ... أين أنت الآن ماذا عن زوجك؟ أتأخذين قرارا دون استشارته ودون العودة إليه؟**

نور: **هو السّبب في كل ما نحن فيه من مشاكل.**

حسناء وهي تبكي: **لماذا تتصرّفين هكذا؟ منذ أن أصبحت تعملين مع نوال منبل أصبحت شخصا آخر يا إلاهي هل وصل بك الحد للهروب من المنزل ومن زوجك؟ ...ماذا عليّ فعله يا رب أسترنا ... ماذا فعل لك جهاد هو مستعد للموت من أجلك فلماذا تفعلين هذا به وبنا... هو لم يرفض لك يوما طلبا فلماذا تتعاملين معه بهذه الطريقة...**

الجدة: **كثرة التدليل يفسد...لقد قلت لك يا جهاد أن تتوقّف عن تدليلها ولكنّك لا تصغي إلّا لقلبك حين يتعلّق الأمر بها وها هي الآن هاربة منك ومن القصر.**

المحامي فؤاد: **أمّي أرجوك هذا الكلام غير مناسب في هذا الوقت بالتحديد.**

يستغرب الكل من هدوء جهاد هو لم يقل أيّ كلمة بل كان يصغي للجميع وهو يحتسي القهوة وكأنّه لا شيء يحدث من حوله.

نور من الجهة الأخرى من الهاتف: **على كل أمّي لا تقلق عليّ أنا سأبقى في منزل نوال منبل إلى حين إيجاد شقّة لي...**

حسناء وهي تبكي: **ألن تعودي إلى القصر أنت امرأة متزوّجة ابنتي وما تقولينه غير موزون جهاد هنا يسمع كل ما تقولينه...**

نور: **لا أريد سماع أيّ شيء يخصّه لأنّه سبب كل ما أنا فيه الآن هو من يريد أن أستقيل من عملي لو لم يطلب ذلك منّي لما هربت من المنزل.**

أخيرا ينطق جهاد ويقول: **أنت ستعودين إلى المنزل اليوم نور.**

نور: **لن أفعل... لن أطيعك من الآن وصاعدا سأصبح سيّدة قراراتي.**

يقف جهاد ويخرج من الصالون دون أن يعير أهمية لما يحدث حوله أو لحديث زوجته الغريب عنه كونه لم يرد أن يحرج زوجة خاله وهي تتحدّث وتحاول توعية ابنتها التّي فسدت طباعها دون سبب أو ربّما لمصادقتها لنوال منبل التّي تندّد بحرية المرأة من كل شيء وفي كل شيء.

يخرج جهاد بعد ذلك إلى العمل دون أن يقول أيّ شيء أو يناقش الأمر مع أحد فهذه هي طريقته في الحياة هو يقرّر لوحده ويخطط لوحده في كل الأمور.

مضى على هروب نور أسبوع كامل وفي هذا الأسبوع كلّه لم يفعل جهاد أيّ شيء بل كان مشغولا في عمله ولم يعر هروب نور أيّ أهمية.

في هذا الأسبوع كلّه لم تذهب نور إلى العمل في المكتب بل كانت تعمل على الملفات المسندة إليها من شقّة نوال منبل وكانت تتبع روتينا واحدا صباحا تشتري الكعك والمزيج المفضل إليها من الحانوت نفسه والذي تقوم بتناوله على نفس المقعد الحجري بعد ذلك تعود إلى الشّقة بعد مغادرة نوال لها من ثّم تركّز على العمل حتّى المساء لتخرج مع نوال منبل بعد عودتها من العمل للأكل خارجا والمشي.

وبالطبع كان جهاد على علم بروتين نور كونه كلف أحد حرّاسه الشّخصيين لتتبعها ومعرفة كل ما تقوم به وإن لم يهتم لأمرها لأسبوع فذلك يعود لكونه يريد إنهاء عمله في شركاته هنا لأخذ نور والرّحيل بعد ذلك.

بعد أسبوع تماما من رحيلها تنزل نور كعادتها لشراء ذلك الكعك الذي سلب عقلها وقلبها.

تجلس على الكرسي الحجري كعادتها وبيد تمسك الكعكة وبالأخرى كأس المزيج وتبدأ في الأكل تحسّ أنّ رجلا بطقم أسود فخم جالس قربها من الجهة الأخرى من الكرسي ولا تعير الأمر أهمية كونها كانت مركّزة على الأكل حتّى أنّه لم تحدّق إليه لتأكّد من هويته كون الأمر لا يعنيها لا من قريب أو بعيد.

وهي تأكل تحسّ بأنّه يقترب منها وبعد ذلك تحسّ بيده تمســـك مرفقها دون النّظر إليه تقول بخوف: **جهاد ...**

دون أن يقول أيّ شيء يقف وهو دوما ممسك بمرفقها يسحبها بقوّة فتقف.

نور وهي خائفة مرعبة منه: **أنت لا يحقّ لك أن تفعل بي هذا جهاد.**

لا يجيب على ما تقوله ولكنّها تراه يرفع يده الأخرى ليشير لسائقه بالاقتراب منهما بالسّيارة.

يرميها إلى داخل السّيارة ويدخل هو من الجهة الأخرى.

جهاد لسائق: **بإمكانك الانطلاق.**

السّائق: **حسنا سيدي.**

يستغرب جهاد من ردة فعل زوجته الغريبة فهي مع خوفها الشّديد منه لم تتوقّف عن تناول هذا الكعك ذو الحجم الكبير الذي لا يمكن لشخص عادي أن يلتهمه لوحده.

بعد ســـاعة من الســـيّر في الســـيّارة تنتهي نور من تناول الكعك أخيرا.

جهاد بســـخرية: **لم أعتد منك تناول الأكل بهذه الكمية وبهذه الشّراهة هل ابتعادك عني فتح شهيتك إلى هذه الدرجة؟**

تحسّ نور أنّه ينتظر إجابة منها فتقول: **لا أعرف السّـــبب ولكنّي حقّا أعشق هذا الكعك ربّما لأنّه لذيذ.**

جهاد بسخرية: **تعشقين هذا الكعك؟**

بعد ست ساعات من السيّر بسرعة يتوقف السّائق ويقول: **سيدي وصلنا.**

يحدق جهاد إلى زوجته النّائمة فيشفق عليها مع أنّه غاضب جدا منها إلّا أنّ حبه لها أكبر من غضبه لا يقوم بإيقاظها بل يرفعها ويصعد الدرج ويدخل قصر جدّه يصعد الدرج مرّة أخرى لأخذها إلى غرفتها والتّي طلب إعدادها من الخدم منذ أسبوع من يوم معرفته بهروبها تقريبا.

بعد أن وضع زوجته في فراشها يعاود النّزول إلى الطّابق الأرضي ليسلّم على جدّه الزّعيم أو بالأحرى الذي كان زعيما قبل أن يتخلّى عنها يوم قتل ابنيه فتنتقل إلى أحد أبناء عمّه الذين لا يعرفون شـــيئا عن الزّعامة مع انتقال الزّعامة إلى ابن عمّه إلّا أنّ النّاس ظلّوا ينادونه الزّعيم لأنّه لا أحد يستحقها مثله لكونه شخصا ذكيّا وطيبا.

يجلس جهاد مقابلا لجدّه على أريكة بعد أن سلّم عليه.

الجدّ: **حين اتصلت بي منذ أسبوع وطلبت إعداد المنزل لمجيئكما لم أصـــدق الأمر فأنا أعرف أنّ زوجتك لا تحب الكفر ولا تطيق هذا المكان ورفضت دوما مرافقتك هنا كيف أقنعتها بالأمر؟**

جهـاد: **هي لم تقتنع والأمر لا يهمني ... حقـا أنـا متعـب من تصرفاتها التّي لا أفهم منها شيئا دوما برّرت الأمر بماضيها ولكنّي حقّا لم أعد أتحمّل ما تفعله ... سأسيّر شركاتي عن بعد من هنا أعتقد أنّي سـأمكث هنا عاما كاملا وقد أعددت للأمر طيلة هذا الأسـبوع؛ أودّ حقّا أن أستريح قليلا هنا جدّي.**

الزّعيم: **مرحبا بك إبني.**

يبتسم جهاد بوجهه الجميل.

بعد مدّة تستفيق نور تجد نفسها في غرفة لم يسبق لها أن دخلتها تحدّق في أرجاء الغرفة بعد أن جلست على سريرها.

تنهض من على السّرير وتبدأ في المشـي في أرجاء الغرفة حافية. تخرج من غرفتها حافية وتمشـــي في ممرّ فخم حتّى تصـــل الدرج تنزل فتصـل إلى الصّـالون المفتوح على الدرج تجد جهاد جالسـا على الأريكة يتحدّث مع جدّه.

تفهم نور أين هي فتجلس على الدرج وتبدأ في البكاء الشّـديد حتّى أنّها لم تسلّم على الجدّ الذي كانت تحبّه جدّا.

مضـــى على مجيئها إلى هذا الكفر المقفر خمســـة أيام وفي هذه الأيام كلّها لم تتحدّث مع جهاد ولم تره كونه كان ينام في غرفة أخرى لأنّه غاضب جدا منها واستأثرت هي البقاء طيلة الوقت في غرفتها لكيلا

ترى أيّ أحد من هذا الكفر كانت الخادمات يحظرن لها الطّعام ويدعنه أمام الباب لتأخذه فيما بعد.

طيلة كل هذه الأيام لم تقدر نور أن تتناول أيّ شـــيء كون الأكل الذي كان يطهى في المنزل كان عبارة عن مأكولات تقليدية من هذه المنطقة حتّى أنّ الطّهاة لم يكونوا إلاّ نساء من المنطقة يعملن عند الزّعيم وعلى اعتبار أنّ نور تكره كل شـــيء يمتّ بصـــلة لكفر العتايدة فهي لم تستطع أن تلتهم أيّ شيء.

اليوم الســـــادس من تواجد جهاد في الكفر ينزل من غرفته مبكرا ويجلس مع الزّعيم للإفطار معه كالعادة.

الجدّ: **أ لن تطلب من نور النّزول للإفطار معنا؟ سـمعت من أحد الخادمات أنّها لا تأكل نهائيا ممّا يقدّم لها من الوجبات ... أنا خائف من أن تتأذّى.**

جهاد: **هي تتعمّد الأمر لكي تجعلني أشـــفق على حالها وأعيدها إلى المدينة ولكنّني أخذت قراري وانتهي الأمر.**

الجدّ: **أخبرتني الخـادمـة أمس أنّهـا فقدت من وزنهـا الكثير ألا تعتقد أنّه لابد لك من تفقّدها والتأكد من وضعها...أرجوك إبني...**

جهاد: **حسنا سأتحدّث معها بعد قليل...**

وقبل أن ينهي كلامه يرى نور تدخل فيركّز على الأكل لكيلا يحدّق إليها كون غضبه من مسألة هروبها من المنزل عاصفة لا تريد أن تخمد في قلبه.

الجد: **سعيد برؤيتك ابنتي.**

تقترب من الجدّ تسلّم عليه من ثّم تجلس مقابلة لجهاد وبالتحديد من الجهة اليمنى للجدّ كونه جالس عل رأس الطّاولة.

نور: **كيف حالك جهاد؟**

لا يجيب على سؤالها وحتّى أنّه لا يحدّق إليها.

تصمت نور وتحدّق إلى الأكل الموضوع على الطّاولة؛ العديد من المأكولات مع هذا هي لا تريد أيّ شيء من كلّ هذا الأكل، تتمنّى لو تستطيع الحصول على كعكة واحدة من التّي تباع تحت منزل نوال منبل أو لو أمكنها أن تأكل طبقا من الأطباق التّي يعدّها الطّاهي في منزل المحامي فؤاد. جهاد من وظّف ذلك الطّاهي وهو أوربي ولهذا فأكله مختلف كليّا عن أكل كفر العتايدة.

تحسّ نور بالجوع يمزّق أحشاءها مع هذا هي لا تريد أن تأكل أيّ شيء موجود على الطاولة.

الجدّ: **ألن تأكلي نور؟**

نور: **بالطّبع سأفعل.**

تأخذ لقمة صغيرة من الخبز الموضوع على الطاولة والذّي هو في الأصل الخبز التقليدي للمنطقة تمضغها ببطء ومن ثّم تبلعها تحسّ أنّ أمعاءها كلّها تحارب هذه اللّقمة مع هذا تأخذ لقمة ثانية وتغمسها في الجبن المحلّي للمنطقة وتأكلها، تحسّ أنّ معدتها تنتفض وأنّها ستموت.

تحسّ أنّ قوّتها تخونها وأنّها ترغب في التقيؤ ولكنّها لم تكن تعرف مكان تواجد الحمّام في هذا الطّابق الأرضي.

تستدير خلفها حيث الخادمة وتقول بصوت متقطع: **من فضلك هل يمكنك أن تدلّيني على مكان تواجد الحمّام؟**

تمشي نور خلف الخادمة ببطء اتجاه الحمام وهي تتألّم وما أن تصل هناك وتحاول التقيؤ حتى يغمى عليها.

تحاول الخادمة إيقاظها دون جدوى فتسرع نحو جهاد وهي تقول: **لقد وقعت السيّدة حاولت إيقاظها ولكن دون جدوى لا أدري ما بها؟**

يسرع جهاد إلى حيث نور يحملها ويأخذها إلى سريرها ويتّصل بالطّبيب.

يصل الطّبيب بعد دقائق فقط... يجلس على طرف السّرير ويبدأ بفحص نور على انظار جهاد القلق جدّا عليها.

يبتسم الطّبيب بعد أن أنهى فحصها وهو يقول: **حتّى الزعيم كان خائفا جدّا عليها في كلّ الأحوال الأمر طبيعي كان عليك فقط أن ترغمها على الأكل فمعظم النّساء في أشهرهن الأولى من الحمل لا يأكلن جيّدا**

بسبب الوحم ...مع هذا أعتقد أن زوجتك منهكة جدّا كونها لم تأكل أيّ شيء منذ خمسة أيّام على حدّ قول الزّعيم سأضع لها المصل وإن كنت تريد أن أصف لها دواء ليساعدها على الأكل فأنا لا أمانع.

بفرح يقول جهاد: **لم أكن أعرف بالأمر.**

كون الطّبيب يعمل في المستشفى الوحيد في المنطقة والذي تعود ملكيته لجدّ جهاد السّخي جدّا معه فهو يدرك جيّدا أنّه عليه أن يتصرّف هو أيضا بلباقة في هذا الموقف.

الطّبيب: **هل تريد أن أتّصل بالمستشفى ليعدّوا لنا المستلزمات لنقوم بالتحاليل لها فورا؟**

جهاد: **لا أريد أن نحرّكها، اتصـــل بهم واطلب منهم احظار كلّ شيء إلى هنا للقيام بالتّحاليل هنا وأريد أيضا المعدّات للتّأكد من صحة الطّفل فهي لم تكن تأكل أيّ شيء وأنا قلق عليه.**

بعد ساعتين تماما يتمّ القيام بكلّ التحاليل والفحوصات التّي طلبها جهاد للتأكّد من سلامة زوجته وطفله.

يقترب الطّبيب من جهاد الجالس قرب زوجته وفي يده ورقة التحاليل وهو يقول: **الثّلاثة بخير وبصـــحّة جيّدة هي في أســـبوعها السّادس ولهذا لم نستطع التأكد من جنس الطّفلين مع هذا اعتقد أنّه على السيّدة أن تحاول أن تأكل جيّدا...**

وقبل أن ينهي يسمع جهاد يقول: **الحمد لله توأم... يا إلاهي يا له من خبر رائع.**

بعد زمن تفتح نور عينيها لتجد جهاد جالسا قربها تتنهّد ولا تقول أيّ شيء فهي تعرف أنّه حين يكون غاضبا منها فمن الأفضل لها الصّمت لكيلا تثير أعصابه أكثر في كلّ الأحوال هي مدركة أنّها أخطأت بهروبها من المنزل ولا أمل في أن يسامحها الآن لذا الصّمت أولى لها وأكرم. آه لماذا أخذت برأي نوال منبل؟ لو ظلّت في المنزل وحاولت اقناعه بان يسمح لها بالعمل لما أوصلت نفسها إلى هذا الحال... الآن فقدت كلّ شيء وهذا كلّه لاستشارتها لنوال منبل.

تحسّ بيده تلاعب شعرها بحنان فتذهل من الأمر وتحدّق إليه باستغراب. أ يعقل أن يكون سامحها هكذا بسرعة ودون أن يعاقبها ليس من عادته فهو دوما يعاقبها حين ترتكب مصيبة ما.

تحسّ نور بيدها تألمها بشدّة تتأوّه للأمر وترفعها لتحدّق إليها وتستبين سبب الألم.

جهاد: **أنت تتألّمين بسبب المصل أليس كذلك كان عليك أن تأكلي جيّدا... فالطّفلين يحتاجان لذلك من الآن وصاعدا عليك حبيبتي أن تعتني بنفسك وبهما...**

تقاطعه وهي مفزوعة: **عن أيّ طفلين تتحدّث؟**

يضع جهاد يده على بطنها وهو يبتسم: **عنهما أتحدث.**

لا تعلّق نور على كلامه فيقول هذه المرّة بنوع من الانزعاج: **أ لست سعيدة بهما؟ ما الأمر اعتقدت أنّك ستفرحين كثيرا بحملك أم أنك كنت على علم بالأمر ولم تخبريني؟**

نور: **لم أعلم بالأمر إلّا الآن.**

كون جهاد يعرفها أكثر ممّا تعرف نفسها يفهم أنّ الأمر جديد عليها وهي خائفة منه فيقول وهو يبتسم: **لا تخافي أنا لن أتركك ولو للحظة حتىّ يلد طفلينا والأمر لن يكون صعبا؛ أعرف أنّ ولادة اثنين يخيفك ولكنّني أعدك أنّ كلّ شيء سيكون بخير.**

نور وهي تبكي: **أريد الرّحيل من هنا أرجوك... أنا لا أتحمّل هذا الكفر أنا أكره حتّى هذا الهواء الذي أتنفّسه هنا... آه حتّى أكلهم لا أحبه.**

جهاد: **سنرحل بعد أسبوع من الآن عليك أن تستريح قليلا أوّلا... على كلّ بالنّسبة للأكل اتصلت بطاهي يعمل في أحد فنادق جدّي في المدينة وسيكون هنا غدا.**

تتنهّد نور ولا تقول أيّ شيء.

جهاد: **عليك أن تنامي قليلا...**

تقاطعه نور وهي تقول: **وهل تعتقد أنّي سأنام وأنا جائعة أريد أكل شيء... أنا أموت من الجوع.**

جهاد: **سأطلب من الخدم أن يعدّوا لك شيئا...**

نور: **أتتذكّر ما كان أول شـــيء طلبته منك حين أخبرتني أنّك واقع بغرامي... أن تطهوّ لي شيئا بيديك، كنت أعرف أنّك لا تجيد الأمر ولكنّي حقّا تمنيت ذلك...رلقد طلبت من الطّاهي أن يعلمّك أســهل طبق يمكنك إعداده لكي تتمكّن من الطّهي بسرعة لي.**

جهاد وهو يقف: **حسنا سأعدّ لك نفس الطّبق وسأعود بسرعة.**

لم يتصــوّر الخدم يوما أن يرو جهاد داخل المطبخ ولكنّه من أجل نور مستعدّ أن يفعل أيّ شيء المهم إرضاءها.

في الحب لا مجال لتكبر والغرور.

الفصل السادس عشر:

السّعادة لا تدوم طويلا

السّعادة لا تدوم طويلا

تستيقظ نور وهي في حضن جهاد تستغرب من أنّه نام في غرفتها وأنّ غضبه منها زال هكذا بسرعة فقط لأنّها حامل.

تتساءل بينها وبين نفسها ماذا كان جهاد سيفعله بها لو لم تكن حاملا يا إلاهي لقد أتى الطّفلين في الوقت المناسب وأنقذاها من عقاب والدهما.

تتأوّه متعمّدة لتتأكّد من أنّ جهاد حقّا سامحها.

يفتح جهاد عينيه الجميلتين وهو يقول: **حياتي هل أنت بخير هل طفليا بخير؟**

نور وهي تتظاهر أنّها حقا تتألّم: **لا أدري ولكنّ بطني تؤلمني نوعا ما.**

جهاد وهو يحاول إبعادها عنه بلطف لينهض من على السّرير: **سأطلب من الطّبيب أن يأتي على الفور لمعاينتك...**

نور وهي تبتسم: **لا حاجة للاتصال بطبيب أنا سأكون بخير بعد حين، سعيدة أنّك سامحتني دون أن تفرض عليّ أيّ عقاب كالعادة ... أحبك جهاد ولا أريد أيّ شخص من غيرك في حياتي دوما تساءلت لو لم تقع بغرامي بعد عودتك من الخارج ماذا كان سيكون حالي ربّما بائسة أو مجرّد امرأة تائهة في هذا الكون الواسع والمليء بأشخاص أشرار مثل عائلتي التّي قتلت هدى دون أيّ رحمة أو شفقة.**

جهاد: **أنا أيضا أحبك يا نور مع أنّك عنيدة ولا تحبين سوى إثارة أعصـابي بتصـرفاتك. على كل أنا لن أعاقبك هذه المرّة مع أنّك هربت من البيت. أحســـب أنّ الأمر يعود إلى أنّك حامل ما يجعلك لا تطيقين زوجك ولا رائحته.**

نور: **كيف أدركت الأمر؟**

جهاد: **لأنّي أعرفك جيدا كنت أحسّ بتقزّزك منّي منذ مدّة ولكنّ مسألة الحمل لم تتبادر إلى ذهني نهائيا مع أنّ الأمر بديهي.**

نور وهي تضحك: **يا ل ذكائك وتفطّنك للأمور كلّها.**

جهاد: **سأستحمّ...**

تقاطعه نور: **ألن تعدّ لي شيئا آكله، الطّاهي الذي طلبته لم يصل إلى الآن وأنا أتضـــوّر جوعا، أرجوك حبيبي أريد أيّ شـــيء المهم أن يكون أنت من يعدّه فأنا لا أحب الأكل الذي تعدّه الخادمات هنا.**

جهاد وهو يضـــحك: **لو تعلمين بما ســيتحدث به الخدم وما هي نوع الاشـاعات التّي ستتنقل على ألسـنة سكّان الكفر فقط لأنّني أطهو لزوجتي هههه.**

نور: **وهل الأمر مهمّ؟ تعرف أنّهم لا يهمّونني وما ســيثرثرون به أيضا غير مهمّ..**

منذ أن علم جهاد بأنّها حامل ومزاجه في أحسن أوضاعه مع أنّه كان يعلم في قرارة نفسه أنّ طباعها ستتغلّب عليها وستعود إلى تصرّفاتها المعتادة منها، هي مسألة وقت وستطالب بالعودة إلى العمل وبالقليل من الحريّة أو ما تعتبره قليلا من الحريّة مع أنّه كثير من الحرية بالنّسبة له.

مع إلحاح نور عليه... قبل بالعودة إلى المدينة مع أنّه كان راغبا بالبقاء قليلا في الكفر لتغيير من العقليات البالية ولكنّ الأمر سيترك إلى حين ولادة طفليه ربّما.

يستحمّ ويخرج إلى الغرفة للبس ملابسه وهو يلبسها يسمع نور تقول له: **جهاد أسرع أمّي تنتظرنا والكل في انتظارنا أخبرتهم أنّنا سنكون في المنزل على السّاعة الثّالثة تقريبا.**

جهاد: **ألا تعتقدين أنّه عليك أن تصبري قليلا فأنا أحتاج لبعض الوقت لإعداد نفسي.**

نور وهي تعانقه: **لا تحتاج إلى أيّ شيء فأنت وسيم جدّا...**

يبتسم وهو يقول: **حسنا.**

نور: **جهاد سأنتظرك في الحديقة قرب السّيارة لقد رأيت السّائق ينظّفها ويعدّها لسفرنا، لا أصدّق أنّنا أخيرا سنرحل عن هذا الكفر الذي أكرهه أكثر من أيّ شيء.**

جهاد: **ولما أنت مستعجلة هكذا لما لا تنتظرين هنا إلى حين انتهائي وبهذا سننزل معا.**

نور: **لا ستجدني في الباحة الخارجية.**

تنزل نور على عجل تفتح باب القصـــر وتخرج ولكنّها تلاحظ أنّ هناك رجلين يصـــعدان ولهذا تتأمّلهما وهما يقتربان منها وهي جامدة في مكانها لا تتحرّك.

يصل الاثنين عندها فيقول أحد منهما: **هل الزّعيم هنا؟**

إنّ من يسألها هو جدّها عبد الحبّار ولا مجال للشكّ بعد أن سمعت صـــوته ونبرته التّي تعرفها جيّدا، أمّا الآخر فعمّها فهو الوحيد في هذا الكفر الذي يملك خانة بهذا الحجم الكبير في جبينه.

لا تجيب فيقول عمّها لجدّها وهو يضـــحك: **هي أجنبية ولا أظنّ أنّها تفهم ما تقوله.**

تحسّ نور من أنّ قلبها يدقّ بشـــدّة ومن أنّه يودّ الخروج من الغضـــب، من الحزن، من الألم، لا أحد يدري. تجثو على ركبتيها من الألم وتصرخ.

يسمع جهاد صوتها فيسرع بنزول الدرج يفتح الباب فيراها جاثية على ركبتيها وهي تبكي والاثنين واقفان قربها.

يسمعها تحدّثه بلغة أخرى غريبة عن سكان المنطقة لكيلا يفهمها الاثنين أو لكيلا يعرفا أنّها من ســـكّان المنطقة تقول له: **أحس بمغص شديد أكاد أموت أرجوك ساعدني.**

يقترب منها فيرى الدم يفهم أنّها مصـــابة بنزيف يرفعها ويســـرع بأخذها إلى غرفتها ويتّصل بالإسعاف.

يعتقد الجدّ والعمّ أنّ زوجة جهاد أجنبية ما منحهما إحســـاســـا بانتصار كاذب.

تســـعف نور في المنزل ويتمّ انقاذها وإنقاذ طفليها بأعجوبة فقد كادت تجهض لمجرد رؤيتها لوجه جدّها وعمّها.

بعد يوم كامل من العلاج تفتح نور عينيها وتجد جهاد جالسا قربها تحدّق إليه والدّموع شـلاّل من عينيها وما أن يرى هذا حتّى يبادر ويقول: **هما بخير.**

نور وهي تصرخ: **أكرهك ... أكرهك لأنّك أتيت بي إلى هذا المكان لا أريدك...ولا أريد رؤيتك...**

جهاد بهدوئه المعتاد: **أرجوك اهدئي حبيبتي...**

نور وهي دوما تصـرخ: **أخرج من هنا لا أريد رؤيتك أ لا تفهم ما أقوله.**

يسـمع الجدّ صـراخ نور فيسـرع بالتوجّه إلى غرفتها يدخل فيجدها تبكي وهي تصـــرخ فيطلب من حفيده الذي كان يحاول تهدئتها بدون جدوى أن يخرج ويتركهما لوحدهما.

يخرج ويبتعد عن انظارها ولكنّه لا يبتعد عن الغرفة بل يقف قرب الباب مستندا الحائط كونه كان يريد أن يعرف لما هي عنيفة معه هكذا.

الجدّ: **ماذا هناك نور ليس من عادتك الصّـــراخ هكذا عليك أن تسعدي وتحمدي الله أنّ الطّفلين بخير وأنّك أيضا على ما يرام.**

نور وهي تبكي: **هو من أتى بي إلى هذا المكان اعتقدت أنّه ســامحني ولكن الحقيقة ليســت كذلك هو دائما هكذا معي لا يحب أيّ شيء أكثر من معاقبتي.**

الجد: **لقد أراد العودة معك إلى المدينة لو لم يحدث هذا الأمر.**

نور: **أريد الطّلاق منه فورا.**

الجد وهو مفزوع: **اهدئي نور ما هذا الكلام.**

نور وهي تبكي بشـــدة: **أطلب من حســـناء أن تأتي أرجوك أريد حسناء...**

الجدّ: **حسنا ستكون والدتك هنا في أقرب وقت.**

نور وهي تبكي بشـــــدة: **لا أريده أن يقترب منّي أخبره أنّي لن أسامحه على ما فعله بي وبطفليّا.**

الجدّ: **حسنا هو لن يقترب منك ولا من هذه الغرفة.**

يجلس الزّعيم قربها وبعد زمن يلاحظ من أنّها بدأت في إغماض عينيها بســـبب النّعاس فيقف لمغادرة الغرفة لتركها تنام وتســـتريح قليلا

ولكنّه يعاود الجلوس حين يســـمعها تقول بصـــوتها المبحوح المخنوق بالدّموع: **جدّي إبقى هنا معي في الغرفة فأنا خائفة جدّا منهم، ماذا لو علموا بمن أكون وأرادوا قتلي؟ ... ماذا عن طفليا؟ ... هل سنكون حقا بخير؟ ...**

يفهم الجدّ أنّ خوفها من سكّان الكفر لم يزل أبدا وكان دوما يسكن في أعماقها فيقول: **حسنا نامي قليلا أنا لن أتركك بمفردك.**

تنام ولكنّها من شدّة خوفها كانت تستيقظ كلّما حاول الجدّ الوقوف وقالت له أو بالأحرى ذكّرته من أنّه وعدها بأنّه لن يتركها لوحدها.

أخيرا تنام بعمق يقف ليغادر فيرى جهاد واقفا قرب الباب وهو يقول: **ستكون أمّها هنا بعد ساعات من الآن اتصلت بها وشرحت لها ما وقع.**

الجدّ: **أنا حقّا آسف جهاد.**

جهاد: **لم أتصـــوّر يوما وقوع أمر مثل هذا حقّا لم أرد إزعاج خالتي وإرغامها على العودة إلى هذا المكان الذي كانت تعتقد أنّها هجرته إلى الأبد.**

لا يمكن العيش بدون التفكير في ماضينا لزمن طويل.

الفصل السابع عشر:

حسناء

حسناء

نســـيت حســـناء الكفر كليّا ومحته من ذاكرتها ومذكّراتها التّي لم تحمل إلى الحزن والبؤس إلّا حين زواجها بفؤاد حقّي الذي منحها الحب والدّعم وإخراجها من دوّامة الضّياع إلى حياة الاستقرار وأدخل في ذاكرتها ذكريات جميلة وكلمات عذبة.

يوم هروبها من كفر المعتدين لم تتصــوّر أبدا أنّ القدر ســيعيدها إلى الكفر، فلم يكن هروبها ســهلا البتّة لتعود مرّة أخرى ... ولولا الزّعيم الذي منحها يد المساعدة لباء الهروب بالفشل ولقتلت هي ونور... للقدر كلمته الأخيرة ولقد أعادها.

لقد منحت حسـناء كل ما تسـتطيع أو كل ما بيدها لنور ربّما لأنّ النّدم من يدفعها كونها لم تمنح هدى أيّ شـــيء أو ربّما الأمومة من يدفعها لا أحد يعلم إن كانت هي بحدّ ذاتها لا تعلم.

تدخل الكفر في سـيّارة فخمة عكس الخروج منه فقد كان في قطار حقير لقد هربت من الكفر وحيدة مع طفلتها الصّــغيرة واليوم تدخله تائهة في أفكـارهـا مرفقـة بزوجهـا المحـامي فؤاد ولكن في كلتـا الحـالتين في الدّخول والخروج الهدف واحد نور وسعادتها.

تحدّق إلى زوجها وهو يقود الســـيّارة بتركيز وتقول بحزن مرير: **تمنيّت لو قبلت البقاء مع ابنتنا أمال فالعودة من الكفر ليست مضمونة لا أريد لأمال أن تيتّم من أبيها وأمّها معا.**

فؤاد: **هي مع جدّتها وأنا متأكّد من أنّها ستحصل على الرّعاية التّي تلزمها.**

حسناء: **أنا حقّا متأسّفة فؤاد لم أرد تعريضك للخطر ولكنّه على ما يظهر هو قدري أن أتعذّب دوما وأعذّب من حولي، يظهر أنّ ما فعلته من أجل نور لم يكن كافيا لتكون سعيدة لابد من أن أمنحها حياتي لتسعد... لم أمنح أختها هدى أيّ شيء لهذا لابد من أن أمنح نور كل شيء هو واجبي اللّعنة لما كنت جبانة في ذلك الوقت لما لم أنقذ هدى كلّما رأيت نور في مشقّة لعنت نفسي وخوفي وجبني... سأفعل المستحيل من أجلها...**

تبكي حسناء بمرارة خوفها حزنها جبنها انكسارها وظلم النّاس لها من بعد ذلك تقول: **يوم طلب ذلك اللّعين المسمى أركان يد هدى أنا لم أفعل أيّ شيء بل قبلت ورضيت بالأمر هكذا دون قول كلمة واحدة كلمة حاسمة لا وألف لا ... وكأنّها ليست منّي ضحيت بها لقد تخليت عنها هكذا دون رحمة وكأنّي لست من حملها تسعة أشهر وأرضعتها من حليب قلبي لم أكن أمّا صالحة بل كنت أمّا طالحة لهدى لقد رأيتها تحترق من الحزن ولم أفعل أيّ شيء...**

لقد رأيتها تقتل ولم أفعل أيّ شيء...

هو دين عليّ أن أسعد وأساعد أختها نور كان طلبها الأخير.

تتنهّد حســناء وهي تقول بصــوت متقطع: **كلّما تذكّرت تلك اللّيلة التّي أتت فيها لتطلب عوني لأخلّصــها من الأمر الذّي لم يكن لنفســها عليه قبل وأنا خذلتها ورفضـــت مســـاعدتها بكلمة واحدة تطفئ لهيب قلبها المذبوح؛ أموت من الحزن في السّاعة ألاف المرّات قد كانت تريد أن تنام معي في غرفتي في تلك الغرفة اللّعينة الحقيرة وأنا رفضــت من أجل ذلك الرّجل الحقير والدها.**

لقد كانت تحسّ بالحزن الشّـديد والوحدة القاتلة وكانت تريد أمّها لكنّي لم أكن أمّها تلك اللّيلة لقد كنت امرأة بدون قلب.

فؤاد: **هونّي عليك يا حسناء.**

حسناء: **أقسم برب الكون أنّي سأنقذ ابنتي وانتزع منهم كلّ شيء كما انتزعوا منّي هدى لن أرحمهم لأنّهم لم يرحموني، كلّ الدّموع التّي بكيتها في هذه الأعوام الماضـية لم تشـفي غليلي لن يشـفي غليلي إلاّ قهرهم.**

حبّهم للمال أقوى من كل شيء وهذا سيكون سبب قهرهم سألعب على هذا الوتر مادامت كلّ أملاكهم لي باسم غاليتي نور.

يركن فؤاد السّـــيارة فتنزل حســـناء على عجل وتتوجه إلى الطّابق الأوّل حيث غرفة نور وهي تطلب من الخدم أن يوّجهوها إلى غرفة ابنتها تصـــل إليها وتســـتلقي قربها وتحضـــنها بقوّة وهي تقول: **حياتي فداك يا**

ابنتي ... حياتي كلّها في يديك وفداك يا عمري يا كل عمري يا جرحي يا قلبي ويا كلّ كياني...

نور وهي تبكي: **أنا خائفة أمّي.**

حســـناء وهي تبكي بقوة: **ســـأقتل كلّ من يحاول الغدر بك وإيذاءك...**

تشـمّ نور رائحة جهاد ومن ثّم تراه يدخل الجناح وهو يقول بصـوته الجميل والهادئ: **خالتي مرحبا بك سعي...**

تقاطعه نور وهي تبكي: **أكرهك ...أكرهك جهاد... أمّي لا أريده لا أريده، أريد الطّلاق منه، أرجوك أمّي لم أعد أحبه لقد خدعني واحظرني إلى كفر المعتدين ليقتلوني ويقتلوا طفليا يريد الانتقام منّي لأنّي هربت من المنزل اعتقدت أنّه ســـامحني ولكنّه ليس من النّوع الذي ينســـى هكذا أمّي يريد أن يضحّي بي وبطفليا ... هو يعلم ما فعله سكّان الكفر بهدى أختي مع هذا أتى بي إلى هذا المكان الذي أمقته أكثر من كل شيء...**

يقاطعها جهاد: **ما هذا الكلام حبيبتي...**

نور: **لست حبيبتك أنا أكرهك بشدة أمي أرجوك أريد الطّلاق منه فورا ولنرحـل من هنـا ... علينـا الهرب من كفر المعتـدين أنـت ستساعدينني أمّي مثل المرّة الأولى أليس كذلك؟ ...**

حسـناء: **حياتي لا أعترض فأنت ابنتي الغالية سـواء كنت مطلّقة أو متزوجة ما أن يولد الطّفلين إن كنت دوما مصرّة على الطّلاق طلبت من عمّك فؤاد أن يطلّقك منـه ولكن في هذا الوقت بـالتّحديد أنـت لا يمكنك السّفر فالطبيب نبّه على الأمر.**

جهاد: **كما تريدين نور...**

نور: **لا أريدك أن تذكر اسـمي فأنت سـبب ما أنا فيه الآن ليتني لم أتزوّج من شخص ينتمي إلى هذا الكفر العقيم.**

جهاد وهو غاضـب: **هل أصبحت الآن أنتمي إلى هذا الكفر يا له من كلام قاسي...**

يخرج من الغرفة وهو غاضب فهو لم يتصوّر يوما أنّه سيسمع هذا الكلام على لسـان نور وهي التّي كانت تعرف كل شـيء عنه وعن مقتل والده وعمّته غدرا على أيدي من ينتمي إلى هذا الكفر.

إنّها بداية العودة أو أيّام العودة إلى البداية.

مضـــى على عودتها إلى كفر العتايده شـهر كامل في هذا الشّـهر كله لم تحاول يوما الخروج من قصـــر الزّعيم كانت دوما في غرفة ابنتها أو في حديقة القصـــر كرهها لســـكّان هذه المنطقة من يدفعها إلى عدم الخروج أو ربّما خوفها منهم من يدفعها إلى عدم الخروج في كل الأحوال لا حاجة للالتقاء بهم أو معهم فالالتقاء بهم لن يأتي إلّا بضرر.

تنزل لتتمشـــى في الحديقة بعد أن رأت ابنتها مغطيّة في النّوم بعد ســـاعة تعود إلى غرفة نور لتتفقّدها تجد زوجها فؤاد جالس على كرســـي قرب رأس نور النّائمة يتلو قليلا من القرآن دوما اسـتغربت من شـخصـية فؤاد حتّى أنّها كانت تظنّ أنّه ينافقها يمالقها فلا يمكن للإنسـان وخاصـة إن كان رجلا أن يكون بهذه الطّيبة المفرطة وهي التّي لم تعرف ســـوى رجال كفر العتايدة وشرّهم المستتر.

هي لا تفارق نور نهائيا لا نهارا ولا ليلا إلّا حين خروجها لتمشـــي قليلا أو الاسـتحمام أو الاغتسـال ولكنّها ما أن تخرج لتمشـي قليلا حتّى يـأتي فؤاد إلى غرفـة نور ليتلو عليهـا أو لهـا قليلا من القرآن دومـا لم تصـــدّق حبّه لنور واعتباره لها كابنته الحقيقية لكن ما كانت تراه منه كان يثبت حبه الأبوي الخالص لنور.

من يوم دخولها إلى القصـــر وهو يحســـن لنور وبعد الزّواج منها أحســـن لها أكثر وبعد ولادة أمال أصـــبح يعتبرها ابنة حقيقية له هو لا يفرّق بين أمال ونور في الحب مع أنّه من الوهلة الأولى قد يعتقد أيّ شـــخص أنّه يدلّل أمال أكثر ولكن الأمر يعود إلى أنّ أمال متطلّبة كثيرا

ومن الذين يحبون المادة كثيرا، أمّا نور عكس ذلك ولا تحتاج إلّا للحب والحنان لتكون سعيدة.

لهذا فهو يحاول تلبية كل طلبات أمال أمّا نور فهو يدعمها من بعيد.

حين كانت نور تدخّن في غياب جهاد لم يقم يوما بالصّراخ عليها بل كان يوجهّها بحب وحنان وحتّى حين رفضت العمل في مكتبه لم يغضب بل سعد لأنّها وجدت الطّريق الذي يناسبها في هذه الحياة هو لا يتوقّف عن دعمها من قريب أو من بعيد.

طيبته حقيقة لا يمكن انكارها هو طيّب مع الجميع بدون استثناء وربّما هذا ما يدفع جهاد للبقاء في القصر مع امتلاكه لأموال طائلة وقصور أخرى ... دوما تساءلت عن السّبب الذي يدفع منيرة وابنها للعيش في القصر مع امتلاكهما لثروة كبيرة تمكّنهما من العيش حيث يريدان ومع هذا هما يفضلان العيش في نفس القصر مع فؤاد. الإجابة واضحة ليتنعّم هو أيضا بمالهما لأنّه حقا يستحقّ الأمر فلو لم يمكن جهاد في قصر الجدّة لما توفّر لهم أكثر من خادمين ولكن مع وجود جهاد الذي يدفع رواتب الخدم فعدد الخدم في القصر يفوق العشرين خدما، وزد على هذا جهاد من يدفع مصاريف الأكل والسفر وهو من اشترى أيضا كلّ السّيارات التّي يمتلكونها.

جهاد دوما منح من ماله لخاله دون أن يشـــعره بالأمر وهذا حين كان يتولّى مصاريف كل شيء. لأنّه يعرف كلّ المعرفة أنّ خاله يستحقّ كل الخير.

لقد مضـــى الآن شـهرين منذ عودتها إلى الكفر ولقد شـفيت ابنتها تقريبا كليّا وســـيعودون ربّما في أقرب وقت إلى المدينة. ابنتها الأخرى أيضـــا محتاجة إليها مع أنّها دوما فضّـــلت نور لما لاقته في حياتها من شقاء إلّا أنّ امال تظّل ابنتها ولها حقوق عليها.

تتمنّى حسناء العودة إلى المدينة ولكنّ الأمر غير معقول.

أمن المنطقي أن تهرب مرّة أخرى دون أن تصـــلح بعض الأمور؟ ماذا عن النّساء الأخريات اللّواتي يعانين مثل ابنتها أو أكثر في صمت. في كل الأحوال نور محظوظة فجهاد يحبّها ولها أم مســـتعدّة أن تفديها بروحها ولكن من النّســـاء في الكفر من لا يملك أيّ ســـند من البشـــر وكأنّهن مقطوعات من الشجر.

هي هنا والقدر من أحظرها هنا وعليها أن تغيّر شيئا هنا.

هدى ماتت مقهورة محصـورة على علم أحبته ولم تستطع تحصـيل أيّ شـــيء منه، لأنّ رجال الكفر قرّروا أنّه لا حق للمرأة فيه ... اليوم عليها أن تعوّض ابنتها بمساعدة الشّابات الأخريات اللّواتي لهن نفس حلم هدى.

صحيح أنّ الأمر لن يعيد هدى ولكنّه سيجعل اسمها يعلو.

ربّما ستفتتح مدرسة كبيرة تسمّيها هدى؛ في حقيقة الأمر أنّ جهاد من عرض عليها الموضـوع منذ زمن ولكنّها رفضـت الأمر كليّا احتراما لنور التّي لم تكن تطيق السّماع بسيرة الكفر، ولكن الأمور تغيّرت، فنور هنا ولقد بدأت تعتاد على الأمر قليلا ولا توجد فرصـة أنسـب من الآن لتشييد المدرسة وتغيير الأوضاع.

قبل أن يعرض عليها جهاد هذا الموضـوع قام هو بأمواله الخاصـة بتشـييد العديد من المصـانع في الكفر، وهذا ما جعله يوفّر العديد من فرص العمل لسـكان المنطقة ما دفع معظم النّاس هنا لحبه والإخلاص له.

الأيّام تمضـي ولا بد من التصـرّف بحكمة لتغيير من الأوضـاع المعتاد عليها فكلّ ما هو عليه معتاد ليس صحيحا دوما.

الفصل الثامن عشر:
جهاد

جهاد

نشــأ جهاد في منزل خاله منذ صــغره لأنّ جدّه من أراد الأمر فقد أحب إبعاده عن الكفر إلى حين بلوغه مكانا يمكنّه من العودة إلى الكفر والتّغيير هناك.

تعلّم جهاد في العديد من المدارس العالمية في الخارج وحين بلغ السّابعة عشر تقريبا عاد إلى الوطن إلى منزل خاله.

لم يكن يخطّط حينها لشيء وخاصة الوقوع في الغرام، ولكنّ الأمر حدث حين رآها؛ لقد كانت صـــغيرة ولكنّها حقا كانت ولتزال جميلة جدّا ومميّزة كثيرا.

كانت في ذلك الوقت في العاشرة فقط من عمرها، والأهم في الأمر أنّها من نفس الكفر الذي ينحدر منه هو ... وقد عانت هي أيضـــا مثله من ظلم سكّان الكفر ومن عادات تلك المنطقة ومن سيفهمه مثلها.

حين عاد من الخارج كان خاله قد طلب يد أمّها، وقد قبلت؛ ما سهّل عليه الأمر كثيرا، فقد غدى وصيّا عليها بحكم القرابة التّي أصبحت تجمعهم، ولكنّ نور لم تكن مهتمة به نهائيا وكلّما تقرّب منها ابتعدت عنه، ولكن الوقت كان كفيلا أن يجعلها تعتاد عليه وتحبه هي أيضا.

لم يكن جهاد يهتمّ لأحد ســواها، كان يحبها حبا كبيرا والأمر مزال على حاله، ولكنّه مع ذلك كان مهتما بأمر كان يســـكنه منذ ذلك الوقت الذي هرب فيه من الكفر مع أمّه يوم قتل والده وعمّته.

لم يستطع يوما جهاد نسيان ذلك اليوم وكان دوما يخطط للعودة وطلب الزعامة التي هي في الأصل له ولعائلته، ولكنّ الأمر لن يكون مثل الماضي ولا مثل الزّعماء الذين سبقوه من عائلته؛ فهو سيغيّر من كل شيء من أجل والده وعمّته.

ينزل جهاد الدرج وهو يتنهّد، لم يتصوّر يوما أنّ نور ستغدو هكذا وتتحوّل إلى شخص آخر؛ هي أصبحت لا تطيقه ولا تتحمّله. لو كان يعلم أنّها حامل لما أتى بها إلى هنا ولما جعلها تكون طرفا من مخطّطه.

ليطلب الزّعامة؛ عليه أن يعلن أنّ زوجته من كفر العتايده، فهذا شرط من الشّروط ليقبل به أهل المنطقة وربّما هذا الشّرط من جعل جدّه يفقد ابنه وابنته. فمع أنّه كان متزوجا من ابنة عمّه ليكون زعيما؛ إلّا أنّ سكان المنطقة اعتبروه مخادعا حين علموا أنّه متزوج من أخرى من خارج المنطقة، وأنّ له ابنين منها. لم يغفر له سكان المنطقة الأمر وهذا ما جعلهم يوافقون على أمر الهجوم على أهله ومعاقبتهم لأنّهم ليسوا على عاداتهم وأفكارهم.

يصل جهاد إلى الصّالون ويجلس على أريكة وهو دوما يفكّر في الأمر.

إن كان يريد الزّعامة فعليا ليغيّر من الأمور في الكفر فعليه الإعلان عن أنّه متزوج من امرأة من كفر العتايده؛ ما سيجعل رؤساء العائلات يطالبونه بهوية زوجته ومن أيّ عائلة هي للتأكّد من الأمر. هل

نور مســتعدّة للأمر رؤيتها فقط لجدّها وعمّها جعلها تنزف ولو أنّ الله لم يستر لكانت فقدت طفليه.

هل عليه الانتظار إلى حين ولادتها لطفليه للمطالبة بالزّعامة؟

لقد قضـــى الكثير من الوقت في حياته هذه يعمل من أجل هدفه هذا، فقد بنى العديد من المصـــانع ووفّر العديد من الفرص ما جعل الكثيرين ينحازون له، ولكنّ هذا الأمر ليس كافيا فأغلبية المنحازين له هم من يعملون عنده أيّ من العائلات البسيطة.

فأفراد العائلات الكبيرة في كفر العتايده لديهم أراضي شاسعة تجعل دخلهم كبيرا وهذا بالعمل وزراعة الأرض ما يجعلهم عن غنى كليّ عن العمل عند أحد. ولكنّه يحتاج أيضــا لانحياز ودعم أفراد العائلات الكبيرة في المنطقة ولكي يحدث ذلك لا بد من الحصــول على الزّعامة والتّي لن تأتي إلّا بإخبارهم أنّ زوجته من الكفر ومن أنّها تكون حفيدة أهم رجل من عائلة آل عبد الجبار من جهة والدها وحفيدة المالك الحقيقي لأراضي آل عبد الجبار من جهة أمّها والذي جعل أم نور ترث كل شيء عنه.

الأيّام تمضي بسرعة ولهذا لابد من أخذ القرارات المهمّة بسرعة أيضا.

الفصل التاسع عشر: جهاد وعقوبته لنور بعدم الخروج طيلة الصيف

جهاد وعقوبته لنور بعدم الخروج طيلة الصّيف

تنزل نور مبكّرا من غرفتها قبل نزول جهاد وتتوجّه إلى الصّـــالون للإفطـار مع الكل، تجد والـدتهـا واقفـة قرب بـاب المطبخ توجّـه الخـدم كعادتها.

نور وهي تقترب من أمّها بدل الذّهاب إلى الصّـــالون للأكل: **حسناء أقصد ماما هل يمكنني الحديث معك في موضوع خاص؟**

حسناء: **ماذا هناك حبيبتي؟**

نور: **ماما قام أصـــدقائي بعزيمتي منذ أيّام للذهاب إلى النّادي معهم اليوم، هل يمكنني أن أذهب معهم؟ أرجوك وافقي ... تعلمين لقد أنهيت كلّ واجباتي المدرســية أمس واعتقد أنّ الأمر لن يأخذ كثيرا من الوقت...سأعود سريعا...**

تقاطعها أمّها: **لما تطلبين الإذن منّي؟ أطلبيه من جهاد، تعرفين طبـاعـه حين يتعلّق الأمر بـك، هو لا يحـب أن تخرجي أو تفعلي أيّ شيء دون الرّجوع له في الأمر.**

نور بانزعاج ملحوظ: **حسناء أنت أمّي ولا أريد أن أطلب الاذن إلّا منك.**

حســـناء: **أطلبي الاذن من جهاد كالمعتاد، أم أنّك تبحثين عن المشـاكل؟ أنا لن أتحمّل عواقب تمرّدك عليه، تعرفين قدر حب جدّته له إن حاولت تحويل حياته إلى جحيم، فجدّته سـتحوّل حياتنا أنا وأنت إلى**

جحيم بكلامها اللاّذع الذي قد يصاب بسببه أيّ انسان في صحّة ممتازة بأزمة قلبية.

نور بغضـــب: **أوف ...وهل عليّ الســـيّر وفق أوامر جهاد طيلة حياتي؟ أعرف أنّنا ســـنتزوج بعد تخرّجي وحينها ســـأحاول مرغمة لا راغبة التعامل مع أوامره التّي لا تنتهي ... ولكن في الوقت الرّاهن لا شـــيء جدّي يربطنا من غير القرابة ولهذا حقا لا أفهم لما عليه التدخّل في كل حياتي، حتّى قبل زواجنا أريد قليلا من الحريّة أمّي هذا حق من حقوقي على الأقل الآن قبل الزّواج ... أصـــدقائي كلّهم مســـتغربين من الوضع الذي أنا عليه...**

حسناء: **دعينا من أصدقائك ومن قصص التحرّر التّي لا تتوقّفين عن الخوض فيها ليلا نهار، وأسرعي إلى الصّالون لنفطر معا.**

تدخل وخلفها أمّها لتجد الكلّ جالســـين للإفطار، تجلس في مكانها المعتاد على انظار جهاد الذي يكاد يلتهمها بنظراته.

الجدة: **ســـعيدة جدّا بعودتك من الخارج وبالهدية التّي منحتها لي حبيبي جهاد هذا حقا كثير ... آه قبل أن أنســـى أريد أن أشـــكرك على لســـان كل أعضـــاء الجمعية وبصـــفتي مديرة الجمعية على الأموال التّي تبرعت بها لجمعيتنا شكرا لك كثيرا جهاد.**

يبتسم جهاد ولا يقول أيّ شيء.

فؤاد: **كيف كانت رحلتك؟**

جهاد: **كانت رحلة عمل دون توقّف ولكنّها كانت ممتازة ... حقّا لم أتصّـــور يوما أن أصـــبح الوريث الوحيد لأملاك جدّتي رحمة الله عليها، لم يحدّثني يوما جدّي عن عائلة جدّتي زوجته من غير أنّها أجنبية. لم أتصـــوّر يوما أنّها تنحدر من أهم العائلات في بلدها رحمة الله عليها.**

الجدّة: **أيّ أنّها كانت ثرية جدّا.**

جهاد وهو يضحك: **أعتقد ذلك هههه.**

الجدة: **أّياك والتّفكير بالرّحيل عنّا والانتقال إلى هناك.**

جهاد: **الأمر غير وارد، فأنا عليّ الاعتناء أيضا بشركاتي جدّي؛ لهذا لا اعتقد أنّي سأستقرّ بعيدا في مكان آخر لزمن طويل.**

وهو يحدّق إلى نور بعيونه الخضـــراء الواســـعة يكمل: **نور هل تحبّين العيش في الخارج أو في مكان معين مستقبلا؟**

نور ودون النّظر إليه تقول: **جهاد...**

جهاد وهو يبتسم: **نعم نور...**

نور وكأنّها لم تسمع سؤال جهاد تقول: **أصدقائي طلبوا منّي قضاء اليوم معهم هل؟**

جهاد: **هذا ما يهمّك فقط الخروج مع الأصـــدقاء أو التحرّر من القوانين أو المطالبة بالحريّة المطلقة؟ ... أنت حتّى لم تهتمّ أو ربّما لم تسمعي سؤالي ... جوابي هو لا**

نور: **ولكنّني أريد الذّهاب معهم حقّا، الأمر غريب جدّا أنت لم تسألني حتّى إلى أين ومع من؟ لا أفهم أصلا لما عليّ طلب الإذن منك ... أمّي أترين؟ ألم أقل لك أنّه لن يقبل؟ على كلّ لم يعد يهمّني رأيك وأنا سأذهب مع أصدقائي، أن قبلت أو رفضت ... من حقّي الحصول على قليل من الحريّة مثل جميع أصدقائي أو مثل الأشخاص الآخرين من عمري...**

جهاد وبهدوئه المعتاد: **أنت لا تعرفين حقّا لما عليك طلب الاذن مني؟**

نور وبغضـــب: **لا يهم أنا من حقّي أن أتصـــرّف بكلّ حريّة في حياتي قبل زواجنا، ولســت ملزمة بتبرير كلّ شـــيء لك. على كلّ ليس قبل زواجنا أو على الأقل ليس قبل خطبتنا رسميّا.**

الجدّة وهي تضـع ملعقتها على الطّاولة بغضـب وتحدّق إلى جهاد بنوع من الجديّة **ألم أقل لك جهاد مرارا وتكرارا لا تدلّلها وكن صـــارما معها، ولكنّك تحبها بجنون ولا تصـــغي لأحد حين يتعلّق الأمر بها. دلّلتها وعاملتها بالحسـنى ودوما اشـتريت لها أغلى الأشـياء وأفخرها، ولكنّ النّتيجة دوما واحدة، ردّ الجميل بالإســاءة. هي حتّى لم تشـكرك**

يوما على ما تعطيه لها وكأنّك ملزم بالأمر ... إلى متى ستدلّلها؟ ...إلى متى ستعاملها بلطف؟ ... هي ستكون عن قريب زوجتك ولهذا عليك أن تعلّمها كيف عليها التّصرف معك واحترامك...

تقاطعها نور: **أنا لم أطلب منه يوما شيئا.**

ولغضبها تكمل دون تفكير وتقول: **أنا أصلا لا أريد أيّ شيء منه، كوني أريده هو لا ماله وبإمكانك أن تسألي إن كنت طلبت منه يوما شيئا مع هذا اعتقد أنّه يدلّلك أنت أكثر منّي، مع أنّه ملزم بي أكثر من الجميع...**

وقبل أن تكمل كلامها يصرخ عليها جهاد وهو يقول: **كيف تحدّثين الجدّة هكذا؟**

نور وهي منزعجة ومحرجة من صراخ جهاد عليها: **حسنا شهيّة طيبة لم يعد لي رغبة في الأكل.**

تخرج نور وتتوجّه إلى غرفتها ولكنّها وقبل الدّخول إلى غرفتها تتلقّى اتصالا من عماد ابن مدير أحد شركاتي جدّ جهاد في المدينة هنا وتجيب: **مرحبا عماد.**

عماد: **أريد رؤيتك أنا أمام بوابة منزلكم، أم أنّك نسيت وتناسيت موعدك معنا؟ سلمى وفرح ووليد هنا أيضا في انتظارك.**

نور: **أنا آتية.**

تسرع نور إلى غرفتها تغيّر ملابسها وتصفف شعرها وهي تبتسم. هي في السّابعة عشر فقط من عمرها إلّا أنّ نموها اكتمل وجمالها يسلب العقول طويلة بملامح سوداء وبشرة بيضاء وعيون واسعة سوداء وفم صغير جميل ممتلئ.

لأوّل مرّة في حياتها تتسلّل من المنزل خفية دون الاهتمام لما قاله جهاد لها.

هي أوّل مرّة لها تتمرّد على جهاد لا تعرف من أين أتتها الشّجاعة لتفعل ذلك؟ ولكنّها فعلت الأمر وانتهى ولا جدوى من التّفكير في شيء قد فعل ووقع.

تقضي اليوم كلّه مع عماد والشّلة دون التّفكير فيما سيحدث لها، وكيف سيكون نوع العقاب الذي اختاره لها جهاد، ولكنّها وقبل دخولها إلى المنزل تحسّ بنوع من الرّعب يتسلّل إلى قلبها الصّغير.

تدخل البوابة وهي تتشهّد لمعرفتها المسبقة لما ينتظرها في القصر، تحدّق إلى هاتفها فترى أنّها التاسعة ليلا لقد أذنبت في خروجها دون إذنه ولكنّ الذّنب الأكبر هو تأخّرها، هذا لقد نسيت نفسها والوقت كليّا حين كانت مع الشّلة.

من الطّبيعي أن تكون أمّها والمحامي فؤاد في هذا الوقت من اللّيل في غرفتهما؛ لأنّه وقت نوم أمال أختها الصّغيرة والجدّة تنام أيضا على السّاعة التاسعة، أمّا والدة جهاد فتنام تقريبا على السّاعة العاشرة، ولكن

من عادتها دخول غرفتها على السـاعة الثامنة والنّصـف كونها تحب القراءة قليلا قبل النّوم ... أيّ أنّ جهاد سيستفرد بها لن يكون هنالك أحد لإنقاذها من مخالبه، ولكنّ في كلّ الأحوال حين يكون عازما على معاقبتها فلا أحدا يستطيع انقاذها.

تصعد الدرج تفتح الباب وتدخل القصر تخترق المسافة الفاصلة بين الباب والدرج بسـرعة ولكنّها فجأة تلحظ أنّ التّلفاز مشـتعل مع أنّه على الصّامت أيّ أنّه هنا وهو غاضب جدّا تتظاهر بعدم رؤيته وتصعد الدرج لتتوجّه إلى غرفتها.

جهاد: **أين كنت إلى الآن؟**

تتجمّد على الدرج وهي تقول: **أخذت الإذن من أمّي.**

جهاد وهو يتقدّم إليها: **لكنّك لم تأخذيه منّي.**

نور: **في كلّ الأحوال أنت لم تمنحني يوما الإذن للخروج مع رفاقي، ولهذا قرّرت التوقّف عن طلبه منك نهائيا؛ لأنّني أعرف أنّي لن أحصل عليه في كلّ الأحوال.**

تتوقّف عن الحديث حين تراه امامها بطوله المتفرع وتسـرع في اسـناد ظهرها على جدار الدرج يسـحبها قليلا من ثوبها ثم يدفعها بقوة يرتطم جسدها بالجدار تتأوه ولكنها تفضل تحمل الالم على الصراخ فهي تعرف انها مذنبة وان هذا الامر كان سـيحدث في كل الاحوال لخروجها من المنزل دون قبوله.

جهاد وهو يقرب رأسه من أذنها ويلعب بيده اليمنى في شعرها: **هل كنت معه؟**

نور: **آه من تقصد؟**

جهاد: **هو من طلب منك الخروج ولهذا عصيت أمري؟**

ولخوفها الشّديد منه تقول دون تفكير: **تقصد عماد؟**

جهاد: **هذا هو اسمه إذا؟ عماد؟**

تلعن نور نفسها لأنّها ألصقت التهمة بنفسها حيث أخبرته باسمه.

وهو دائما منحني إليها ويلعب في شعرها: **هل تحبينه؟**

نور: **لا أحبه أقصد هو مجرد صديق لي.**

جهاد: **ماذا عنه؟**

تصمت ولا تجيب.

جهاد: **ماذا عنك؟ ماذا تحبين أكثر فيه؟**

لا تجيب لهذا يهزّها بعنف بكلتا يديه فتقول له بخوف: **رسّـــام ... هو رسّام بارع وأنا معجبة به أقصد برسمه.**

جهاد بغضـــب شـــديد: **آه أنت في مرحلة الاعجاب التّي تســـبق الحب.**

تفهم أنّه على علم بكل شـــيء وكيف لا والخدم هنا يخبرونه بكل شـيء. حتما أحدهم رآها مع عماد وأوصل الخبر له؛ ولكنّها حقّا لا تحب عماد وهو مجرد زميل لها أو بالأحرى زميل تحب رسـمه وتشـجعه على النّجاح في الرسم.

جهاد: **هل تريدينه؟ ...هل ترغبين فيه؟**

تفكّر نور بســـرعة في مخرج من المأزق الذي هي فيه ... هل عليها أن تسـتنجد بأمّها أو زوج أمّها او والدته، ولكنّها تعرف جيّدا أنّ لا أحد منهم سيغيثها. فالخصم جهاد، ولا أحد سيتجرأ على معاندته من أجل فتاة ظلّت في الخارج دون إذنه إلى التاسعة ليلا.

أخيرا وصـــلت إلى حلّ لا تعرف حتّى إن كان حلّا لما هي عليه، ولكنّها قرّرت اسـتعماله؛ ترفع يديها وتحوط جهاد من رقبته وترفع رأسـها نحوه وهي تقول: **أنا آسفة حبيبي الأمر لن يتكرر**.

هي أوّل مرّة له يسمعها تناديه حبيبي، لاستغرابه يخفّ غضبه أو ربّما لفرحه بالكلمة يخفّ غضبه منها.

تكمل نور وتقول: **تعرف إنّـه لا يمكن أن أحب رجلا آخر لأنّك دائما في قلبي**.

تقرب شفتيها من شفتيه وتقبله، يتعجّب من تصرّفها ولكنّه لا يقول أيّ شيء.

هذه هي أوّل قبلة لهما مع حبهما الكبير لبعضهما البعض، إلّا أنّه لم يتجرأ يوما على تقبيلها مع رغبته الكبيرة في الأمر وبها، إلّا أنّ خوفه من ردة فعلها كان دوما يمنعه من الإقدام على الأمر أو ربّما صغر عمرها من كان يمنعه، ولكنّها من بدأت الأمر لاستعدادها له ولعدم انكارها له.

يستجيب لرغبته ويحوطها من خصرها ويقبّلها هو أيضا، من بعد ذلك يبدأ في تقبيلها من رقبتها وهي دوما في حضنه، يهمس لها: **نور علينا أن نتوقّف قد ينزل أحدهم ويجدنا في هذا الوضع ولا أحب أيضا أن يرانا أحد الخدم هكذا....**

وهي تسمعه يهمس هذه الكلمات لم يكن لها إلّا أن قالت: **أحبك جهاد كثيرا.**

دوما وهو يقبّلها ويعانقها: **لا أريدك أن تتحدثي معه أو مع أيّ شاب آخر لأنّني لن أتحمّل الأمر نور.**

حين دخول نور إلى القصر كانت أمّها والمحامي فؤاد في شرفة غرفتهما ينتظران قدومها. مع دخولها إلى القصر اطمأنت أمّها ودخلت إلى الغرفة للنّوم مع أمال، أمّا فؤاد فجلس على أريكة في أحد أركان غرفته لإكمال عمل مهمّ لم يستطع انهائه صباحا في المكتب.

مضى على دخولها إلى المنزل ساعة تقريبا ولم يسمع بعد باب غرفتها يفتح، أيّ أنّها لا تزال في الطّابق الأرضي؛ يسرع المحامي فؤاد

إلى الصّـــالون خشـــية منه أن يكون جهاد عاقبها أو أذاها بدافع الغيرة الشّـــديدة. وكيف لا يفكر في هذه الاحتمالات المريبة وهو الذي يعمل محاميا في هذا المجال، وقد رأى أشـياء يشـيب لها الشّـعر ويشـيخ لها القلب.

يصـل إلى الدرج ولكنّه يجد عكس ما تصـوّره كليّا. يسـعل متعمّدا ليحسّ الاثنان بتواجده بقربهما فتركيزهما على ما هما فيه منعهما من الاحساس بوجوده قرب الدرج. يبتعد الاثنان عن بعضهما البعض؟

جهاد: **خال**

لا يجد جهاد لأوّل مرّة ما يقوله لهذا يصمت.

المحـامي فؤاد: **إلى يوم زواجكما لا أريـد لأحد منكما أن يـدخل غرفة الآخر. نور أنت ممنوعة من الصّـــعود إلى الطّابق الثّاني. جهاد أنت أيضا ممنوع من الدّخول إلى الطّابق الأوّل.**

جهاد: **موافق.**

نور وهي محرجة تقول: **ليلة سعيدة لكما.**

تسـرع بعد ذلك بالصّـعود والتوجّه إلى غرفتها والنّدم يعصـر قلبها على ما فعلته ورآه زوج أمّها.

مضـــى شـــهر كامل من يوم دخول نور إلى المنزل على السّـــاعة التاسعة ليلا، أصبح جهاد يقبّلها ويحضنها كل ما انفرد بها.

منذ ذلك اليوم أصبح لا يمتنع نهائيا عن هذا الأمر؛ ما أتعب نور كثيرا مع هذا لم تستطع أن ترفض لأنّها من بدأت الأمر ورخصّت له.

هي العطلة الصيفية وقد أعدّت نور كل مستلزمات السّفر إلى الخارج مع أمّها وزوجها وأختها أمال.

تنهض نور صباحا وتتوجّه إلى الطّابق الأرضي للإفطار مع العائلة، تلتقي بجهاد عند ردهة الطّابق الأوّل يسحبها ويبدأ في تقبيلها كالمعتاد ... تنتظر وتصبر حتّى يتوقّف عن الأمر ثّم تقول له بعد أن ابتعدت عنه: **سمعت أنّ والد عماد قد عزل عن منصبه وبعث إلى الخارج؟ لقد تّم شراء قصرهم المقابل لنا من أحدهم. هل أنت من فعل الأمر؟**

جهاد: **ولما عليّ أن أفعل كل هذا؟**

نور بنوع من الغضب: **أنا حقّا لا أفهم لماذا تتصرّف هكذا؟ ألا تفهم أنّني أحتاج إلى قليل من الحريّة وأن يكون لديّ أصدقاء وأن أتصرّف كما أريد؟**

جهاد وهو يسحبها إليه وينحني برأسه نحو شعرها الأسود الحريري: **لا أفهم لما تريدين أصدقاء من الذّكور؟ ألا يكفيك أن يكون لديك أصدقاء من البنات؟ وعلى كل لقد قلت أنّه من حقّك أن يكون لديك الحرية في التصرّف من غير الرّجوع إليّ إلى غاية زواجنا أو خطبتنا. الآن أنت خطيبتي رسميّا ولهذا فمن حقّي أن أفرض عليك ما أرغب به.**

لقد استدعيت جدّي الذي أتى منذ أسبوعين من الآن خصّيصا لطلب يدك وقد قبلت.

نور: **سعيدة لأنّي سأذهب مع أمّي وعمّي فؤاد وأختي إلى الخارج ما سيريحني قليلا من أوامرك التّي لا تنتهي.**

يقبّلها ويلعب بشـــعرها وهو يقول: **ألم أخبرك حبيبتي أنّك معاقبة لأنّك خرجت منذ شهر بدون إذني ولم تدخلي إلّا بعد التاسعة ليلا؟ لهذا أنت لن تذهبي إلى أيّ مكان في هذه العطلة؛ ألغيت رحلتك. عرض السّـــفر للخارج لن يخصّ إلّا عائلة خالي؛ أمّا أنت فلن أدفع لك أيّ شيء.**

نور وهي تدفعه وتبتعد عنه: **أنت حقّا شخص شرّير.**

جهاد: **عليك أن تختاري كلماتك بعناية حياتي لأنّي لا أحب السيّئ من الكلام. على كلّ أنت ستعملين مع جدّتي في الجمعية طيلة الصّيف كمتطوعة؛ لأنّك رفضت طلب السّماح منها حين طلبت هذا منك.**

نور: **حبيبي أرجوك أنا موافقة على أيّ عقاب، ولكن العمل مع جدّتك أمر مستحيل، أرجوك حبيبي لا تفعل بي هذا.**

يحدّق إليها وهو يبتسم: **حسنا سأرسل لها شخصا آخر من شركتي لمساعدتها هذا الصّيف.**

نور كمحاولة أخيرة لها لإقناعه بســـفرها مع أمّها وعائلتها: **جهاد أرجوك وافق على أن أسافر معهم إلى الخارج...**

جهاد: **بإمكانك المجيء معي إلى كفر العتايدة إن كنت تريدين تغيير الجو.**

نور: **تعرف أنّني لا أحب ســماع اســم هذه المنطقة، حســنا أنا موافقة على عقابك سأظّل في المنزل طيلة العطلة.**

لكل احساس ردّة فعل.

الفصل العشرون:

ماضينا جزء منّا ولا يحقّ لنا انكاره، إن كان جميلا أو قبيحا يظلّ مهما كونه وقت عشناه في حياتنا.

ماضينا جزء منّا ولا يحقّ لنا انكاره إن كان جميلا أو قبيحا، يظلّ مهما كونه، وقت عشناه في حياتنا

لقد مضى على تواجد نور في الكفر ثلاثة أشهر تقريبا وهي الآن في شهرها الخامس، قد شفيت تماما مع هذا هي لم تقرّر بعد العودة إلى الديّار إلى المدينة، وعلى ما يظهر من تصرّفاتها هي دوما غاضبة من جهاد كونها لا تتحدّث معه مع، إنّه دوما سعى لمصالحتها، لا تفهم لما هي عنيدة حين يتعلّق الأمر بالعودة إلى الحياة الطّبيعية معه، مع أنّها حقّا تحبه ولكن الأمر ليس سهلا لقد تعمّد احضارها إلى هذا المكان الذي تكرهه كثيرا، وكيف يمكنها أن تحب مكانا يسكنه من قتل أختها.

جهاد هذه المرّة عاقبها بطريقة لا قبل لها ولا طاقة لها عليها، لم تتصوّر يوما من أنّها ستعود إلى هذا المكان مهما يكن، ولكنّها عادت وانتهى الأمر والسبب في الأمر هو الرّجل الوحيد الذي أحبته والذي لا تحب من غيره أحدا من الرّجال.

دوما تساءلت نور إن كانت مخطئة في قراراتها وخوفها من هذا المكان؟ فالأمر لا يستحقّ كلّ هذا الخوف كونها اليوم زوجة جهاد وكنّة أهم رجل في الكفر، مكانتها اليوم تقيها شرّ من كان سببا في موت هدى.

مع هذا يظلّ سؤال واحد يسكنها هو؛ ألا تعتبر العودة إلى الكفر خطأ فادحا، خطأ أكبر منّا ولا يمكن أن يكون له حلّ لكبره الشّديد؟

الفصل العشرون: ماضينا جزء منّا ولا يحقّ لنا انكاره إن كان جميلا أو قبيحا، يظلّ مهما كونه، وقت عشناه في حياتنا.

ماذا لو كانت أخطاؤنا أكبر منّا حينها؟ ماذا علينا أن نفعل؟ أن ننكرها ونتهرّب منها؟ أو نتحمّل عواقبها ونحاول إصلاحها؟

دوما خافت نور من العودة إلى الكفر أكثر من أيّ شـــيء في حياتها، ولكنّها اليوم هنا راغبة راهبة مرعوبة؛ ليس خطأها أن تكون من أهل الكفر، ولكنّ الامر يظلّ خطأ وذنبا وبلاءا، والأهم في الأمر أنّه مؤلم ومخيف. تتلمّس بطنها وهي تتنهّد؛ أصـــبحت تدرك جنس طفليها، هي ســـترزق بعد أربعة أشـــهر فقط من الآن بولدين، ولقد تقرّر عليها انجابهما هنا في هذه المنطقة التّي تكرهها أكثر من أيّ شيء، وكل شيء في العالم ... هنا ماتت هدى أو بالأحرى قتلت ظلما وجورا.

كيف بإمكانها أن تحب هذه المنطقة؟

هل عليها أن تســـامح جهاد الذي فرض عليها هذا الهمّ؟ فالتواجد هنا همّ بمعنى الكلمة.

تنزل إلى الصّـــالون للجلوس هناك، ولكنّها ســـرعان ما تغيّر من رأيها وتقرّر الخروج إلى الحديقة لتتمشّـــى قليلا. تبدأ في التفرّج على أشـجار الحديقة ولكنّها تتفاجأ بسـماع صـوت شـخص في الخارج ينادي باسم هدى بأعلى صوته. ما يجعل تركيزها يتحوّل من تأمّل الأشجار إلى الإصـــغاء لهذا الصّـــوت. تنتفض للأمر، فســـماع هذا الاســـم في هذه المنطقة بالتّحديد يجعل قلبها يهتزّ ويرتاب. ترغب في الخروج إلى الشّارع لرؤية المنادي والمنادى عليه وهي الممنوعة من الخروج، وحتّى أنّه لم

يســـبق لها الخروج لوحدها حتّى إلى الحديقة، وهذه هي أوّل مرّة لها من يوم أن كادت تجهض الطّفلين. من النّاحية الصّـــحية والطبيّة لجســـدها مؤخرا فقط أصـــبح بإمكانها الخروج وحتّى السّـــفر إن رغبت في الأمر بشـــهادة الطّبيب المســـئول المتابع لحالتها، ولهذا خرجت للحديقة دون الاستعانة بأحدهم للتأكّد من كلام طبيبها ربّما.

يظلّ الشّخص ينادي وتضلّ هي في الإصغاء، تتذكّر أختها وكلّ ما وقع عليها، ودون التّفكير في العواقب تقترب من الباب وتطلب من الحارس أن يفتح لها الباب على عجل من أمرها.

الحارس بتردّد وحذر شديد: **سيّدتي علينا إخبار السيّد جهاد أوّلا، إن كنت حقّا راغبة في الخروج فهو نبّه علينا واشـترط علينا هذا الأمر لا خروج لك دون إذن مسبق منه.**

نور: **لا يهمّني افتح لي الباب فورا.**

يفهم الحارس أنّه لا جدوى من اقناعها، يفتح لها الباب وتخرج ويسـرع هو بالاتصـال بجهاد لاطلاعه على الأمر. بينما يلحق الحرّاس الآخرين وعددهم خمســة بنور للتأكّد من أنّ لا أحد ســيتعرّض لها أو يعترض طريقها.

تمشـي بعض الخطوات اتجاه الصّـوت، ولكنّ الصّـوت سرعان ما يختفي، تظلّ واقفة تائهة لزمن معين ومن ثّم تســتدير إلى الخلف فترى قصر جدّ جهاد خلفها.

تقرّر العودة ولكنّ احساسا ما يباغتها ويمنعها ويطلب منها الذّهاب إلى منزلهم؛ إلى تلك الغرفة الصّغيرة التّي كانت تشاركها مع هدى، لا بدّ من العودة إلى تلك الغرفة الحقيرة وشـــمّ الرّائحة العفنة المنبعثة من كلّ أركان تلك الغرفة الصّـــغيرة البســـيطة، هو خطأ أن ترغب في الأمر وتشتهيه، ولكنّها اشتهته وانتهى الأمر.

لابد لها من العودة إلى الماضـــي ومراجعة أخطائها كلّها لتغلب على مخاوفها كلّها، لا يمكن أن تظلّ طيلة حياتها خائفة ضائعة لقد كان جهاد محقّا فيما كان يقوله لها ويردّده على مســامعها دوما؛ لا يمكن أن نظلّ هكذا دون أن نصــلح الكفر من أجلنا ومن أجل ماضــينا الضــائع وجميع الأشخاص الضّائعين هناك.

تتقدّم نور ببطنها الكبير وملابســها الفاخرة المختلفة تماما عن ملابس سكّان هذه المنطقة، في طريق صـخري وعر محفوف بالأشـجار تستغرب من كونها لم تلتقي بأحد.

فهي عـادة ســكـان المنطقـة النّهوض مبكّرا والعمـل في الأرض صــباحا في هذا الوقت بالتحديد. تتقدّم بصــعوبة وببطء بســبب حملها ولكنّها أخيرا ترى منزلهم من بعيد، تلحظ أنّ النّاس فيه كثيرون فرحون يغنون على طريقتهم التقليدية التّي تكرهها كثيرا كونها تكره كلّ شـــيء يعود أصــله إلى هذا الكفر. تصــل إلى عتبة البوابة الكبيرة المطلّة على الفناء، فتضـــلّ واقفة دون حراك بســـبب معين أو ربّما دونه. بعد زمن يلاحظ النّاس تواجدها هناك يتوقّفون عن الغناء المصــدع للرؤوس والذي

لم يكن سوى مديحا في حقّ العروسة والعريس تردّده النّساء، بينما هناك امرأة تضرب على الطّبل.

يقف الكلّ حولها محدّقا إليها باســـتغراب؛ وكأنّها كائن أتى من الفضـــاء، فجأة ترى جدّها وعمّها وجدّتها مع رجلين أخرين وامرأتين على أعلى تقدير، أحد الرّجلين أخوها والآخر ابن عمّها، أمّا المرأتين أحداهما أختها والأخرى ابنة عمّها يخرجون من المنزل ويقتربون منها. يظهر أنّ أحد الموجودين أعلمهم بتواجدها هناك.

يتأمّلها جدّها بتركيز فيتذكّر أنّه رآها في قصـــر الزّعيم ومن أنّها سيّدة آل زعيم زوجة جهاد، فيقول بصوت عال ساخر ليسمعه الجموع: **زوجة جهاد الأجنبية هنا، يا مرحبا بك ها هي زوجة جهاد الذي يريد أن يغدو زعيما متناســيا أنّه من شــروط الزّعامة أن تكون زوجته من هذا الكفر، وكونه حفيد أهمّ رجل في الكفر، لا يكفي ولا يفي الشّـــروط ... إنّه يريد أن يخدعنا كما خدعنا جدّه، يتزوّج من امرأة مســكينة من هنا من الكفر ويتزوّج بأجنبية ليكون من عندها الأولاد.**

الجدّة بغضـــب: **نحن لم نعزم أهل الزّعيم، فماذا تفعلين هنا في حفل زواج حفيدتي ميادى مع حفيدي خالد؟**

تفهم نور أنّ أختها ســتتزوّج بابن عمّها، فتحسّ بغضـــب شـــديد يعتريها، لقد كانت ميادى تحبّ دوما خالد وهما تقريبا في نفس العمر

وهما سيتزوجان، أمّا أختها هدى فقد أرادوا تزويجها برجل في الخمسين من العمر، يا للظّلم والجور.

تحسّ نور بالحزن الشّديد يمزّق قلبها وبالعبرات تذرف من عينيها، فيحدّق إليها بتركيز كلّ الموجودين كان هناك رجالا كثرا ونساء كونه حفل عند أحد أهم العائلات في الكفر أهل عبد الجبّار.

تحسّ نور برغبة في لطم الجميع ورجمهم مثلما فعلوا بأختها، ولكنّها تهدئ من روعها وتقول بعد تفكير عميق وصلت فيه إلى نتيجة حتمية؛ وهي أنّه على جهاد الحصول على الآغاوية والزّعامة من أجل انقاذ الضّعفاء الرّاغبين في التّغيير، ولتتمكّن هي من طرد هؤلاء من أملاك أمّها التّي غدت أملاكها بكلّ سهولة ودون الرّجوع إلى القانون والاستعانة بغير جهاد.

فالزّعيم هنا شخص مطاع وبإمكانه أخذ أيّ قرار بعد الاطلاع على كل الأراء وكل الوثائق وذلك باحترام الحقيقة وأخذها بعين الاعتبار: **ألا يحقّ لي التواجد في عرس زفاف أختي بابني عمّي؟**

يستغرب الجميع من كلامها ولهذا يسود الصّمت والانتباه، وتكمل بأعلى صوتها ليسمعها الجميع: **ولنفرض أنّكم لم تعزموني مع أنّي حفيدتك نور، آل عبد الجبار أخبروني، ألّا يحقّ لي أن آتي من حين إلى آخر إلى منزلي متى أحببت ومتى اشتهيت؟ فهذا المنزل منزلي**

وكل هذه الأراضـــي ملكي بعد الله فقد كتبت حســناء آل عبد الجبار كلّ شيء باسمي.

وقبل ان تكمل كلامها يقترب منها عمّها بغضـــب ويدفعها ناحية الباب لصفعها، وقبل أن يلطمها يسمع صوت جهاد الواقف خلفها يقول: **صـحيح إنّها من آل عبد الجبار، ولكنّها زوجتي ولا يحقّ لأحد أن يرفع يده على زوجتي، لو صفعتها؛ لقطعت يدك.**

يحدّق الجميع إلى جهاد الذي كان يتفحّص زوجته بعيونه ويديه ليتأكّد من أنّها بخير.

بعد التأكّد من أنّها على ما يرام يقول جهاد: **لما أنت هنا؟ ألم أطلب منك عدم الخروج من القصر لوحدك؟ ماذا تفعلين هنا نور؟**

تنفجر بالبكاء وهي تقول: **لقد قتلوا أختي وهم يحتفلون كالمعتاد بالإعراس وكأنّه لا شيء وقع وكأنّه لا أحد قتل ظلما ولا أحد رحل وهرب عن هذا المنزل دون عودة لظلمهم الشّـــديد... أريدهم أن يرحلوا من أملاكي فورا لا أريدهم هنا جهاد ... لما أنا وأمي فقط من يتألّم من شـــيء فعلتموه؟ أنتم ارتكبتموه دون تفكير، أريدكم أن تحسّـــوا بقهري على هدى، أنا لازلت أحلم بها على الدّوام وهي تبكي وتطلب منكم عدم الزّواج من ذلك الحقير الذي طالب بشـــيء لا حقّ له فيه، كيف يطلب رجل في الخمسين الزّواج بطفلة في السادسة عشر فقط من عمرها؟ ... وأنت يا من تدّعي أنّك جدّنا كيف قبلت بهذا؟ كيف فعلت هذا بنا؟ أنا لن أسامحك.**

وهو يحضـــــنها ويحاول تهدئتها على مرأى من الجميع الذين لم يعتادوا رؤية رجل يدلّل زوجته دون خوف ودون الاهتمام لأحد: **أرجوك نور اهدائي حبيبتي علينا العودة إلى المنزل نتفاهم هناك وسأجد حتما حلاّ يفرح قلبك.**

تبتعد نور عنه قليلا ببضـعة خطوات ترفع خصـلات شـعرها عن جبينها لتري الجميع جبينها أو بالأحرى النّدبة الموجودة على جبينها وتقول: **بحقّ هذه النّدبة التّي ما هي إلاّ ذكرى ما فعلتموه بأختي أنّي سأعاقبكم وسترون.**

الجدّ وهو يصرخ: **سأقتلك قبل أن تفعل أيّ شيء...**

وقبل أن يجيب جهاد تقول حسـناء التّي وصـلت لتوّها وهي تلهث مرفقة بزوجها: **ألم يشبع قلبك وبطنك بعد من القتل؟ لن أقول عقلك فأنا أشـكّ أن لك عقل ... فالعقل هو العضـو الذي يفكّر وأنت لم تفكّر يوما في حياتك وحتّى الآن في هذا الموقف أنت لم تفكّر بأنّ لنور من يحميها، أمّها ابنـة أخيك التّي انتزعت منها أملاكها وأذللتها، وفي الأخير قتلت ابنتها لأنّها حاولت الهروب من أجل تحصـــيل العلم الذي أحبته أكثر من كلّ شـيء، وهل تعتقد من أنّني سـأسـمح لك مرّة أخرى بقتلي؟ فقتل نور هو قتل لي، لقد أخذت منّي هدى هكذا، اختطفتها منّي والآن أيضا تريد اختطاف نور منّي معتقدا أنّي لن أفعل أيّ شيء، أتعتقد حقّا أنّي لن أدافع عنها؟ ...**

لم يتعرف أحد على حســـناء إلّا من صـــوتها كون مظهرها تغيّر كليّا. فالعزّ وكثرة الخير الوفير يحوّل الأحوال والمظاهر.

الجدّة: مرحبا **يا فاجرة...يا هاربة**

حسناء بغضب شديد وسخرية: **وهل هربت من النّعيم أو من كثرة الخير والإحسان الذي وجدته عندك يا زوجة عمّي؟**

نور: **أمّي من أشرف النّاس.**

ترى نور أختها ميادى تخرج من المنزل بثوب زفافها وهي تبكي، فتشفق عليها من هول ما يحدث في يوم زفافها.

لقد كانت هدى تحب كثيرا ميادى، ولهذا تحنّ عليها وتقول: **حسنا حســـناء فلنعد إلى القصـــر، نحن ليس لدينا ما نفعله مع هؤلاء الأشـــخاص الأغراب عنّا على الأقل بالإحســـاس، هم غرباء أو ربّما أعداء.**

ميادى: **نور أختي أرجوك...**

وقبل أن تكمل تقول نور بنوع من الحزن: **لم أعتبرك يوما أختا لي على عكس هدى التّي كانت تحبك كثيرا، إن كنت ســـأصـــمت اليوم فلأجلها ولأجل حبها لكي واحتراما لها سأجعل عرسك يمضي على خير، بالنّسبة لي لم يكن لدي سوى أخت واحدة في الماضي هي هدى واليوم لم يبقى لدي إلا أخت واحدة هي أمال.**

وهي تشير إلى زوج أمّها تكمل وتقول: **ابنة أمّي وعمّي فؤاد.**

الجدّة: **اللّعنة عليك يا حســـناء يا بنت مروان، هل تزوّجت على ابني رحمة الله عليه؟ ... من حبه الكبير لك مات بعد عامين فقط من هروبك لم يستطع تحمّل غيابك عنه.**

حسناء بسخرية: **لهذا تزوّج بامرأة أخرى بعد زواجنا بعام واحد... إن كان هو مات بعد هروبي فأنا لم أعد حيّة إلاّ بعد هروبي؛ لأنّي كنت دوما ميّتة.**

الجدّة: **هو رجل... رجل ليس مثلك مجرّد امرأة ومن حقّه الزّواج عليك.**

حســناء: **منطق حقا غريب، أنت تحلّلين لمن تشــائين وتحرمين لمن تشائين، وكأنّ الأمور بيدك، صحيح إنّه رجل وأنا مجرّد امرأة على حدّ قولك، مع هذا أنا أحسّ مثله، لدي قلب مثله ينبض ويحسّ بالحزن والفرح، حين تزوّج أنا أيضــا انهرت وانهرت ولم أقل أيّ شـــيء لأنّني مجرّد امرأة، هو المعتاد عليه أن أصمت لكنّني اليوم أعرف أنّه حقّ من حقوقي، أن أعرف، أن أحزن، أن أبكي وأقول لا حين أريد مثلي مثل أيّ رجل، لأنّنا سنحاسب الاثنين أمام الله، وكل واحد مسئول على فعله، فلماذا سلب منّي حقّ الاختيار والفعل الذي سأحاسب عليهما من ملك الملوك الله.**

الجدّ بسخرية: **ما هذا الكلام؟ هل غدوت من المتعلّمين؟**

حسناء بكل حزن: **غدوت من المتعلّمين بفضل هذا الرّجل المحترم الذي تزوّجته، أعرّفكم عليه؛ فؤاد أو بالأحرى المحامي فؤاد حقي الذي**

أدخلني إلى أفضـــل المدارس بمالـه، ولم يخف من تعلّمي ولا فهمي للأمور، بل كان الأمر دوما يسعده.

تبدأ الجدّة فجأة بالبكاء والنّواح أمام الموجودين لتكسب تعاطفهم.

نور وهي تهمّ بالرّحيل وتحدّق إلى جدّتها الباكية تقول: **عادت حليمة لعادتها القديمة... أمّي علينا الذّهاب فورا فحليمة لن تتوقّف عن البكاء حتىّ يعود حقّها المسـلوب، ولكن للأسـف حليمة ليس لها أيّ حقوق لأنّ كلّ الحقوق أصبحت باسمي.**

ليس لأحد الحق في سـلبنا حقّ الاختيار سـواء أجدنا أو أسـأنا الاختيار.

الفصل الواحد وعشرون: الهروب من المشاكل دون مواجهة حلّ من الحلول

الهروب من المشاكل دون مواجهة حلّ من الحلول

تدخل حسناء قصر الزّعيم فتنفجر ببكاء هيستيري لم تعتد عليه.

نور وهي تحضن أمّها: **ما بك حسناء؟ لماذا هذا البكاء؟ لا تخاف أمّي لن يحدث لنا أيّ شيء سيء.**

حســـناء وهي دوما تبكي: **ألا يحقّ لي أن أبكي أخيرا أختك؟ لقد جفّت عيوني من الحزن لســـنين، دعيها تفيض أخيرا ... أنا لم أبكي أختك لأنّه لا دمع في عينيا من كثرة ما لقيته من هؤلاء النّاس الأشرار وخاصة جدّك وجدّتك.**

بعد زمن معين من البكاء المتواصل دون توقّف تطلب حسناء من الجميع أن يتركوها لوحدها لتبكي ما لم تبكيه في الماضي. فعلى الانسان أن يبكي ماضيه وما وقع فيه من أمور حزينة ولو بعد مرور زمن طويل.

من حقّ كلّ أحد منّا اســـتدراك الأمور والبكاء عليها من الفرح أو الحزن، وذلك متوقّف على كل موقف وتأثيره فينا وفي حياتنا.

تتنهّد حســناء وتتوقّف كليّا عن البكاء حين تتذكّر أنّ طرد آل عبد الجبار يعني طرد أهلها، لقد وصّـاها بهم والدها قبل أن يسـجّل كل شـيء باســـمها، حقّا هي لا تدرك ما عليها فعله وما هو الحلّ الحقيقي لهذه المعضلة.

وهل طرد عائلتها من أملاكها هو الحلّ الأنسب لحلّ مشاكل كفر العتايده الكثيرة؟ بالطّبع لا تعتقد ذلك... ما هو الحل إذا؟

على العشـــاء ومع جلوس الكل حول الطّاولة تحدّق حســـناء إلى الكلّ وهي تقول: **قرّرت المغادرة والعودة مع فؤاد إلى المدينـة، أمـال مـا تزال صغيرة وهي في حاجة إليّ حاليا أكثر منك نور.**

نور وهي تتلمّس بطنها لتذكّر أمّها بوضـعها الرّاهن: **أ تعتقدين أنّ أختي حقّا هي الأحوج إليك منّي حاليا ماما؟ ... أنا بالكاد أســـتطيع الحركة وماذا عن المشاكل الموجودة هنا؟**

حسـناء: **أعتمد عليك وعلى جهاد لحلّ مشـاكل هذا الكفر، أنا لم أعد أريد أن أكون من ســـكّان هذه المنطقة، لقد عانيت كثيرا هنا ولا أرغب في البقـاء للعيش معهم، يكفيني مـا لقيتـه منهم، لم أعد أريـد إكمال حياتي معهم، وكما قلت لك أختك تحتاجني ومن واجبي العنـاية بها كما فعلت معك دوما.**

نور: **مع أنّ الأمر محزن بالنّسبة لي حسناء، ولكن كما تريدين.**

حســناء وهي تبتســم بحزن: **لم تتغيّري كثيرا ولم تغيّري الكثير في طبعك؛ لازلت تناديننـي حســناء كلّما ضـاقت عليك الدّنيا... أو بالأحرى كلّمـا كـان الأمر الذي أقولـه لـك لا يروقك ولســـت موافقـة عليـه. في الماضـــي كنت تناديننـي حســـناء لأنّي لم أكن أمّا حقيقية، أمّا توافق توقعاتك. كنت سيّئة حياتي، ولكنّي أعدك أن أكون أحسن أمّ لك ولأمال أختك.**

نور: **آسفة أمي...**

حسناء: **لا عليك، ولكن قبل ذهابي أريد أن أذكّرك أنّ من تريدين الانتقام منهم هم أهالنا، وإن ظلمونا يبقون أهلنا، وظلمهم في الأصل ناتج عن عاداتنا البالية التّي تحثّ على قتل كلّ فتاة تحاول الهروب من قدرها... لم أتصوّر يوما أن أقول لك هذا الكلام، ولكن بعد تفكيري في الأمر لكلّ هذه السّنين وصلت إلى شيء واحد؛ هو أنّ انتقامي منهم لن يعيد حبيبة قلبي هدى، ولن يغيّر في الأمر شيئا... أتمنّى حقّا أن تستطيعا أنت وجهاد إصلاح الأمور هنا وتغيير الأفكار القذرة التي تسمح بقتل شخص دون سبب أو لسبب... فالحياة حقّا مهمّة وثمينة، ولابد من عدم إهدارها وعيشها وبذل قصار جهدنا فيها... أتمنّى أن لا تعيش أيّ فتاة حياة أختك هدى.**

في الصّباح الباكر ترحل حسناء من الكفر إلى المدينة تاركة خلفها ماضيا أليما لا يمكن نسيانه أو تحويله. هي تعلم أنّه لابدّ لها من المساعدة في تحويل الأمور في كفر العتايده، ولكنّ الأمر شاق عليها كونه يذكّرها بابنتها التّي فقدتها دون أن ترفع إصبعا واحدا من يدها لتعترض.

لم تجد حسناء غير الهروب حلّا لتخلص من الكفر والمشاكل المعشّشة، فيه حالها حال كثير من النّاس... فالكثير منّا يفضّل الهروب للنسيان بدل المواجهة للتغيّير.

كان لا بد لحسناء أن ترتاح ممّا كان يسكنها من قهر.

كان لا بد لها أن تبتعد عن رائحة هذا الكفر المليء بدماء هدى.

قرّرت أخيرا واختارت أن تتخلّى على أصـــولها وتســـتبدل حياتها القديمة نهائيا بحياتها الجديدة مع فؤاد وأمال.

أنّ الكفر بالنّســـبة لحســـناء عبارة عن ثوب بالي تفوح منه رائحة الجثث منذ موت هدى، ولقد احتفظت بذلك الثّوب ربّما من أجل نور ولكنّها اليوم قرّرت أن ترميه وتنساه إلى الأبد وهي تخرج الكفر في سيارة فؤاد التي كانت تقودها بنفسـها، استدارت خلفها ناحية الكفر وأقسمت ألّا تدخل الكفر أبدا بعد الآن.

بعد شـهرين تقريبا من رحيل والدتها تقرّر نور الخروج من القصـر للاطلاع على أمور النّاس، فبعد أن غدى جهاد زعيما لهم منذ شـــهر تقريبا الأمور تحوّلت كليّا هنا وبســـرعة، حتّى أنّه مؤخرا بدأ في بناء مدرسة كبيرة ستحتوي حتى على ملعب كبير، ولقد وافق كلّ سكّان الكفر على الأمر ورحبوا به بفرح شديد.

قامت نور بطرد أهلها من أملاكها منذ شـهرين، وسـعت لنسـيانهم كليّا ومحوهم من مذكّرتها، ولكنّها مؤخّرا ســـمعت من أحد حرّاس جهاد أنّهم اتخذوا كوخا مهجورا في النّاحية الجنوبية المعزولة من الكفر كمنزل لهم، فلم يرضـى أحد توظيفهم في أرضـه كونهم لا يجيدون كثيرا الأعمال

الشّـــاقة؛ فهم معتادون فقط على إعطاء الأوامر للفلّاحين لأنّهم من آل عبد الجبار الأثرياء.

تفكّر نور بالعودة إلى المنزل بعد جولة طويلة مع خادمة لها في الكفر، ولكنّها تغيّر من رأيها وتتّجه إلى النّاحية الجنوبية من الكفر للاطلاع على أمور أهلها.

تصـــل الكوخ وقبل الدّخول تجد جدّها جالســـا على حجر كبير مستندا حائط الكوخ الهش.

ما أن يراها حتّى يبتسم لها بحزن ويقف وهو يقول: **اجلسي مكاني سآخذ حجرا كبيرا من هناك لأجلس عليه قربك.**

تأمر نور الخادمة بتركهما لوحدهما ليتحدّثا.

يعود جدّها وصخرة في يده يضعها بجانبها ومن ثمّ يجلس عليها.

الجدّ: **هل كلمة آسف نور ستكفي؟ لا لن تكفيك، لأنّها لم تكفيني أنا حينها... حين قتلت أصبحت لا أؤمن بالكلمات ولا بمفعولها.**

نور وهي تحدّق إليه بحزن: **لأوّل مرّة أعتبرك محقّا في قولك. الكلمة لن تعيد هدى.**

الجدّ: **لهذا لن أقول الكلمة؛ لأنّها لا تكفي ولأنّي لا أســتحقّ أن أســامح، مع أنّ الظّروف من صــنعت عبد الجبار... أنا لم أولد هكذا؛ لقد كنت مجرّد شـاب طيّب بسـيط من عائلة ثريّة حين كنت صـغيرا، لم**

أكن أهتم لأيّ شـيء ولم أكن أرغب في أيّ شـيء أكثر من العيش في سـلام وبسـلام... كنت فتى أنيقا هادئا يمقت العادات ... كبر الفتى ليغدو الشّـاب الذي أحب فتاة فقيرة خفية عن أهله ووعدها بالزّواج، ولكن أهله رفضـوا، أجل أهلي رفضـوا لأنّها كانت فقيرة ولكنّني كنت أحبها حبا مجنونا، حبا يفوق التصوّر لهذا طلبت منها ،أن تهرب معي لنتزوّج في المدينة ونرحل عن هذا الكفر، ولكن أهلها أمسكوها قبل أن تبلغ المكان الذي كنت انتظرها فيه.

يصمت قليلا ثّم يكمل ويقول وهو يبتسم بحزن: **قتلت هكذا قبل أن تفعل أيّ شـيء، قتلت قبل أن تبلغ الذّنب أو ترتكبه... تكسر من بعدها قلبي ورحلت منه أفراحي، وغدى هدفي الوحيد في الحياة أن أنتقم من الكلّ، بتطبيق العادات التّي أكرهها أكثر من أيّ شـيء في هذه الدّنيا؛ لأنّها أخذت منّي حبيبة قلبي هدى.**

نور: **اسمها هو هدى؟**

الجد: **ولهذا حملت أختك هذا الاسـم، الأمر لم يكن صـدفة وكلّ شـيء في الحياة مرتبط بغيره... أنا من منحتها الاسـم... تعرفين نور أنّي كنت على علم بهروبك مع والدتك في ذلك اليوم؟ ولكنّي لم أستطع أن أؤذيك، على الأقل إن لم يكن من أجل القرابة فلأجل أختك التّي كانت تحمل اسـم التّي أحببتها ومن أجلها غدوت الوحش الذي أنا عليه، لم يهن عليّ أن أؤذي أحب شخص إلى أختك انت وأمّك.**

نور: **لو كنت حقّا تحب هذا الاسم لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم، أعداء مع أنّنا من عائلة واحدة ونحمل نفس الدماء.**

الجد: **الغباء وسوء التدبير كان دوما مصيبتي؛ ولهذا نحن على ما نحن عليه اليوم، فبعد موت هدى التّي أحببتها أصبحت انسانا شرّيرا؛ هدفه الوحيد وكما قلت لك الانتقام، أردت أن يفقد كلّ شخص في الكفر شخصا عزيزا على قلبه من أجل أن يحسّ الكلّ بقهري والحزن الذي يحسّ به قلبي... الكل أصابه غضبي الزّعيم في ابنيه، آل سالم في ابنتهم، آل ولي في بنتين من بناتهم والقائمة طويلة...**

لم أتصوّر أنّ حفيدتي ستهرب من البيت. حين هربت لم أرد أن أمسك بها أو أقتلها، ولكنّ ثأري مسّ الكلّ فغدى الكل مثلي يريد أن ينتقم، ولهذا أسرع الكلّ وامسكوا بهدى واحظروها على عجل وطلبوا منّي أن أطالب بموتها كما فعلت دوما مع ذويهم...

تألمّت للأمر، ولكنّي نفذته بغطرسة معاندا قلبي، قتلت من أحببتها؛ فقتلت الكثير لتنطفئ نار قلبي، ولكنّها لم تنطفئ بل غدت مشتعلة أكثر.

النّار التّي أحرقت الكثير من سكّان هذا الكفر؛ أحرقتني مرّة أخرى حين نفّذت الأمر على حفيدتي المسكينة. صدقا لم أتحمّل الأمر وصبرت، ولكنّ والدك لم يكن بقوّتي فمات هو كذلك بسبب وهم يسمّى العادات... نار قلبي أحرقتني وأنا أستحق الأمر.

دوما تظاهرت بالقوّة ولكنّي تعبت، أريد أن ينتهي انتقامنا المخفي تحت رداء العادات. سعيد والكلّ سعداء بعودة جهاد ليحرّرنا من حزننا وعبء الانتقام الذي حولنا إلى وحوش بشرية.

كان علينا أن نتحرّر من الأمر منذ زمن، ولكنّنا لم نستطع لأنّنا لم نجد مخرجا مرضيا لنا؛ كوننا لم نشبع من القتل أو لأنّنا حقّا متوحّشون بالفطرة في هذا الكفر ونحب الدم المسفوح والفتك بالغير، بعكس زوجك الذي تربّى بحب دون كره غايته أحلال السّلام. نحن كانت غايتنا قهر الغير كما قهرنا.

أنا آسف نور على ما فعلته، أعترف أنّ الانتقام ليس أفضل شيء نقوم به في هذه الدّنيا، ولكنّي لم أحسن التّفكير والتقدير وها أنت ترين ما آل إليه حالي.

أنا متعب والكلّ متعب، ولكنّ الحزن لا يريد أن ينطفئ حتّى الدّموع جفّت من الانكسار.

الجدّة من خلف الكوخ: **لقد سمعت كلّ حديثكما، حقّا لم أتصوّر يوما أنّ قلبك مزال ملكها، يا إلاهي حتّى بعد هذه السّنين كلّها لزلت لا تعيش إلّا لذكراها؟ ... نور هل يمكنني العيش معك ولو كخادمة؟ أرجوك ابنتي... أنا لن أستطيع أن أظّل هنا ولو لثانية أنا أيضا متعبة.**

نور للخادمة: **فرح هل يمكنك أن ترافقيها إلى منزل جدّ جهاد وتطلعيه من أنّها ستعيش هناك من الآن وصاعدا؟ أنا لن أتمكّن من**

أخذك معي إلى المدينة، فأمّي لم تعد تريد أن يكون لها أيّ صلة بالكفر أو بأحد من أهلها.

الجدّة: **هي محقّة فلا خير فينا ترجوه، محظوظة هي أن تخلت عن هذه المنطقة وهربت منها، فلا أحد منّا سلم من همّ هذا الكفر وعاداته.**

بعد مغادرة الجدّة وهي باكية تنوح يقول الجد: **شكرا لك حقّا أنا أيضا تعبت منها، هي لم تفعل شيئا سوى زيادة الطّين بلّة؛ وذلك منذ زواجنا هي لم تنصحني يوما أن أفعل الخير وأتوقّف عن انتقامي، وكأنّها كانت تنتقم من الكلّ لأنّي لم أقع يوما في حبها وأحسب أنّ أمّك قد مسّها الكثير من انتقامها.**

نور: **ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أنا أيضا مسّتني نار هذه العادات، هل عليّ أن أنتقم منك؟ من جدّي وإخوتي؟ أم من عمّي؟ ولكن هذا الأمر لن يعيد هدى؟**

الجدّ: **لا أصلح أن أنصح أحدا.**

تتنهّد نور ولا تقول أيّ شيء.

الجدّ: **لقد طلبت من الكلّ أن يحترم زوجك ويطيعه لكيّ نستطيع أن نتخلّص بسرعة من الثأر ونتحرر من أكاذيب ووهم العادات، التي قمنا بنسجها بأنفسنا لنتعذّب ونعذّب بها غيرنا وذلك ظلما وعدوانا.**

نور: **ماذا عن إخوتي والآخرين من آل عبد الحبار ما ذنبهم في كل الأمر؟**

الجدّ: **لم يحســـنوا حين اختاروني كرئيس للعائلة، ولهذا ربّما عليهم أن يتعذّبوا مع أنّهم ليسوا إلّا ضحايا.**

تتنهّد نور وتقول: **لقد بدأت الأمور تتحسّـن بفضـل جهاد ورغبة القوم بالتّغير، سأكلّف أخي بالاعتناء بأملاكي وليدير هو العائلة... لقد التقيت به في طريقي إلى هنا، لم أتصـوّر يوما أنّه سـيمنح ابنته اسـم أختنا هدى رحمة الله عليها... ممّا ســمعته منه يظهر أنّه هو أيضــا تعذّب من الماضي الذي فرضتموه علينا دون رغبة منّا.**

الجدّ: **لن أتدخّل في أيّ أمر... من الآن وصـــاعدا قرّرت أن أعتزل الكلّ لأتعبّد الله؛ لعلّي أحصـــل على الغفران وقليل من راحـة البال... على كلّ حال لقد حكم علينا جهاد أنا وكلّ رؤســـاء العائلات الأخرى الذين شـاركوا من بعيد أو قريب في مقتل أحد من الكفر بالنّفي، سنرحل قريبا لنريح هذا الكفر من شرّنا وانتقامنا وربّما ضياعنا... هذه المنطقة حقّا من أجمل المناطق، ولكنّ بأفعالنا المشـينة غدت الأسـوأ والأمقت... أحيانـا ابتســـم من حياتي وأتعجّب منهـا ومن فظاعتهـا ومرارتها، هل رأيت في حياتك من انتقم من نفســـه بنفســـه؟ أنا فعلت الأمر حين طلبت قتل أختك التّي كانت تحمل اســـم حبيبتي... قتلت حبيبتي بأيدي أهلها وقتلت التّي كانت تحمل اســـمها بأيدي أهلها، أنا من طلبت قتل هدى الأخرى أختك يا للألم...**

بعد صـــمت يكمل ويقول: **عليّ أخذ عمّك معي إلى المنفى لأنّه يحمل شـــرّا ورثه منّي ولا أريده أن ينتقم منك أو من أخيك الذي تعذّب**

كثيرا بعد موت هدى، أرى أنّ أخاك هو الأطيب في آل عبد الجبار والأنسب للأمر الذي تريدين تكليفه به.

نور: **لا أعرف حقا ما عليّ أن أقوله لك، فألمي ممّا فعلته يمنعني من أن أطلب من جهاد أن يسامحك وا يسامح الآخرين.**

الجدّ: **أيّاك أن تحرميني من أخذ عقابي بالطرد من الكفر فهو جزاء أفعالي ولن أرضى بأن أسامح هكذا دون أخذ العقاب.**

بعد صمت يقول: **نور احذري من جدّتك؛ فهي لا تملك للأسف أيّ خير في قلبها.**

تبتسم نور أخيرا: **حسنا إذا، لديّ فكرة بمن يستطيع تحويل أمرها إلى الأفضل أو الأسوأ؛ نوال منبل سآخذها للعيش معها في شقّتها، إن استطاعت أن تحوّلني أنا بيسر، فالجدّة لن تكون أمامها إلّا كالقشة على سطح بحر هائج...**

الجدّ وهو مستغرب: **نوال منبل؟**

نور: **أنت لا تعرفها، ولكنّها حقّا امرأة مميّزة جدّا ومختلفة كلّ الاختلاف عن كلّ النّاس الموجودين هنا أو الذين تعرفهم هههه... هي لا تملك إلّا غاية واحدة في الحياة إفساد المرأة هههههه آه أقصد المطالبة بتحرير المرأة.**

بعد حديث مطوّل مع الجدّ تعود نور إلى القصـــر بعد أن أظلم اللّيل تجد جهاد في الحديقة ينتظرها، ما أن تدخل حتّى يسرع إليها يقبّلها ويحضنها وهو يقول: **قلقت كثيرا عليك وعليهما.**

نور: **هل أنت متأكّد من أنّك كنت قلقا عليّ فمؤخرا همّك الوحيد هو الطّفلين.**

جهـاد وهو يتلمس بطنهـا بلطف: **مـا هـذا الكلام حبيبتي هـل أصبحت تحملين في قلبك الطّيب غيرة على طفليا؟**

نور: **حتّى حين تـذكرهمـا، أنـت على الـدّوام تقول طفليك وليس طفلينا.**

يبتسـم جهاد وهو يعانقها: **كما تريدين من الآن وصـاعدا سـأقول طفليّا من حبيبتي.**

نور: **أفضل هذا... حسنا لقد كنت مع عبد الجبار.**

جهاد: **بما أنّك كنت معه لهذا الوقت المتأخر، أعتقد أنّك وصـلت إلى قرار ما بخصوص عائلتك آل عبد الجبار.**

نور: **قرّرت إعـادة كـلّ أملاكي إلى آل عبـد الجبـار ليتمتعوا بهـا وجعل أخي وليّا على أملاكي.**

وهو دومـا يحضـــنها: **ونعم الرّأي، كون أخيك شـــخص طيّب للغاية... وربّما هو الوحيد المناسب للأمر في تلك العائلة...**

وهي تحوطه بيديها: **أريد العودة إلى منزلنا في المدينة؛ تعبت من العيش هنا، أرجوك لقد قمت بتعيين أشـــخاص ممتازين يمكنهم إنهاء الاصـــلاحات التّي بدأتها، لا حاجة لبقائنا هنا، أفتقد الكلّ في المدينة، أمّي، أمّك، الجدّة، عمّي فؤاد، أمال...**

جهاد وهو يضـــحك: **وتفتقدين حتما حريتك ونوال منبل المتهورة ونصائحها المجنونة؟ ... حسنا غدا سنرحل عن هذا الكفر ونعود إلى حياتنا.**

عادت نور مع جهاد إلى المدينة، وبعد شــهر من عودتهما أنجبت طفليها.

مضت أعوام وأعوام وانصلحت الأمور كثيرا في الكفر بفضل جهاد ونور وكثير من النّاس الشّــرفاء، حتّى أنّه أصــبح للكل الحق في التعلّم والعمل.

لابدّ من الاجتهاد للتغيير.

لكلّ أمر نهاية، وللظّلم أيضا حتما نهاية.

ماذا لو حاد النهر عن مسراه وجعل الكفر مجراه ؟
ماذا لو فكر الإنسان وأساء التدبير وجعل من رفيق دربه ضحية التقاليد و التفكير البالي ؟
مذا لو قرر الانسان أن يستغل العادات لصالحه و يرضخ بها أخاه الانسان ؟
في كفر تغير فيه مفهوم العادات والتقاليد فغدت كالأسلحة التي استغلت بأبشع الطرق للقتل والترهيب لا للحماية والدفاع عن الأرواح كما خطط فعليا يوم صنعت عالم مثل هذا لابد من التوغل في حرب عاداته للخروج إلى نور المفاهيم الصحيحة المبنية على المنطق لا على الإرث البشري المستنسخ حسب الأهواء و النزعات العرقية و النفسية.
حسناء امرأة من كفر العتايدة قررت التخلي عن نفسها وعن أمومتها لتعيش في سلام في كفر فيه المرأة لا تزن مثقال ذرة من قيمتها الفعلية بسبب العادات والتقاليد التي أرضختها بالعنف والقوة.
بعد سنين البؤس الطوال تفهم حسناء أن تضحياتها الكثيرة ضاعت سدا و باءت بالفشل لهذا تقرركسر كل القيود و المضي قدما من أجل ابنتها التي قتلت بهتانا و لتنقذ ابنتها المتبقية وتحميها من ما يمكن أن يعترض طريقها.

0791681304
dar.elkalimat2018@gmail.com
الكلمات للنشر والتوزيع
elkalimat2018
elkalimat2018
9 789931 793069